سلسلة الدورات العلمية



مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي
مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية

مقاصد القرآن الكريم (٣)

مجموعة بحوث

تحرير

محمّد سليم العوّا



مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي
مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية

22A Old Court Place
London W8 4PL, UK
Tel: + 44 (0) 203 130 1530
Fax: + 44 (0) 207 937 2540
Email: info@al-furqan.com
Url: www.al-furqan.com

الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ /٢٠١٨ م
ردمك: ISBN: 978-1-78814-695-1

فهرس المحتويات

من مقاصد القرآن الكريم في بناء الأمة الشاهدة على البشرية

محمد شهيد[(١)]

مقدمة

النص هو المنطلق والمنتهى عند أمة الإسلام. منه المنطلق لاستنباط الأحكام الشرعية التي تيسّر الحياة على الناس، وإليه الرجوع عند الاصطدام بالواقع وتعقيداته. ولا حياة للأمة الإسلامية ولا سعادة لها في الدارين إلا بالاستمساك به. وتشكل مقاصد القرآن نبراسا تهتدي به الأمة للسير على خطى ثابتة تقيها الزلل والفهم الضيق الذي يحرج الناس في حياتهم.

والله تعالى خلق الناس لعبادته والتمسك بهديه. ومن أهم مظاهر تحقيق هذه العبادة مهمة تحقيق الشهود الحضاري للأمة الإسلامية على البشرية؛ وهو عندي المقصد القرآني الأهم حتى تبقى هذه الأمة في الريادة وفي مقدمة الأمم تحق الحق فتنصره وتضعف الباطل فتنكره.

وهذه المهمة الأساس في حياة الأمة لم يعد لها وجود بفعل التخلف والضعف والوهن الذي حل بالأمة، وهو بلا شك ناتج عن الابتعاد عن الله عز وجل والبحث عن الاهتداء في غير هديه، أو الغفلة عن المقاصد القرآنية التي توجه الأمة إلى ذلك.

---

(١) باحث مغربي، حاصل على الدكتوراه في أصول الفقه ومقاصد الشريعة الإسلامية، أستاذ بجامعة محمد الأول، وجدة، المغرب.

ويتجلى هذا الغياب حتى على مستوى البحوث والدراسات السابقة التي تعالج هذا الموضوع. فموضوع الشهود الحضاري للأمة الإسلامية يكاد ينعدم وجوده في الدراسات والأبحاث اللهم بعض الإشارات والكتابات التي تصدر بين الفينة والأخرى. ولعل أهم من كتب في الموضوع في الفترة المتأخرة عمر عبيد حسنة في «**حتى يتحقق الشهود الحضاري**»، وعالج الموضوع في جل كتاباته خاصة «**من فقه التغيير**» أو «**في منهجية الاقتداء**» أو «**رؤية في منهجية التغيير**» أو «**تأملات في الواقع الإسلامي**» وكذلك في «**نظرات في مسيرة العمل الإسلامي**» وفي حوارات له مع ثلة من نخبة الأمة ومفكريها في جزأين من «**فقه الدعوة: ملامح وآفاق**» ضمن سلسلة **كتاب الأمة** التي تصدرها وزارة الأوقاف في قطر.

ولعبد المجيد النجار دراسة متميزة تحت عنوان كبير «**الشهود الحضاري للأمة الإسلامية**» كتب فيه ثلاثة أجزاء، في الأول تناول «فقه التحضر الإسلامي»، وفي الثاني تناول «عوامل الشهود الحضاري»، وفي الثالث تحدث عن «مشاريع الإشهاد الحضاري». وقد اهتم فيه بكيفية استعادة الشهود الحضاري الذي فقدته الأمة الإسلامية.[١]

وعالج جانبا من الموضوع أبو يعرب المرزوقي من الجانب الفلسفي في كتابه «**شروط نهضة العرب والمسلمين**» حين تحدث عن الإدراك الشهودي وكيفية التخلص من الجحود وذلك في الفصل الثاني[٢].

ومن أهم الدراسات في الموضوع أيضا ما كتبه عبد العزيز برغوث في كتابه «**الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة**» وهو الكتاب الأول الذي ضمن سلسلة روافد التي تنشرها وزارة الأوقاف في الكويت إذ طبع في أبريل ٢٠٠٧.

---

(١) عبد المجيد النجار، **فقه التحضر الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص٥.

(٢) أبو يعرب المرزوقي، **شروط نهضة العرب والمسلمين**، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠١، ص١٥١.

بالإضافة إلى ذلك كتب الطيب برغوث «**المدخل السنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم**» الذي يرى فيه «أن موضوع المقاصد الاجتماعية في القرآن الكريم، جزء من مقدمة أو خريطة مدخلية كلية ضرورية أوسع، يضعها القرآن الكريم بين يدي الخلافة البشرية في الأرض، ينبغي أو يجب تأسيس الوعي بها ابتداء، قبل الحديث عن الكليات الجزئية الكثيرة المندرجة ضمنها. حتى لا تنفصل هذه الكليات والمقاصد والقواعد الجزئية أو القطاعية الكثيرة، عن مداراتها السننية الكلية الناظمة والضابطة لحركتها الوظيفية».(١)

ومن الملاحظ أن دراسات وإصدارات مالك بن نبي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، يكاد يكون لها الفضل الأوفر في توجيه الأمة إلى الجانب الحضاري في تحليل وضع الأمة والبحث عن مخرج للأزمة والظروف الصعبة التي تعرفها. وعنه توالت الدراسات والبحوث التي امتازت بتوسيع مداركها ووسائلها في التحليل ومراجعة الواقع المؤسف للأمة الإسلامية.

وإذا كان ابن نبي هو رائد الدراسات الحضارية ومحييها الأول منطلقا ومستهديا بابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، فإن الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو ملهم النخبة والعلماء في الدرس المقاصدي. حيث توالت الدراسات بعد ابن عاشور وعلال الفاسي في المرحلة المتأخرة في المعاهد والجامعات والمؤسسات العلمية.. وقد كان في الفترة المتأخرة لأحمد الريسوني خاصة ويوسف حامد العالم ونخبة أخرى من الباحثين والعلماء دور كبير في بعث المقاصد والكتابة فيها. لكن الملاحظ في جل هذه البحوث هو الميل في الإغراق التخصصي الأصولي، على رغم أهميته، وإغفال البحث في امتدادات المقاصد الشرعية في الجوانب الإنسانية والحضارية..

---

(١) الطيب برغوث، **المدخل السنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم**، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، لندن، ط١، ٢٠١٦، ص١٣.

وبالخصوص الشهود الحضاري للأمة الإسلامية على الإنسانية. كما أغفلت هذه الدراسات في العموم مقاصد القرآن الكريم لتبحث في المقاصد في الفقه والأحكام الشرعية في الوقت الذي كان ينبغي الرجوع إلى الأصل الذي هو القرآن الكريم. وإذا استثنينا مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية في مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن الذي عقد دورتين، والثالثة في الطريق بإذن الله[١]، فإن الدراسات في مقاصد القرآن تبقى محدودة وقليلة جدا.

من جانب آخر تحاول هذه الدراسة «من مقاصد القرآن الكريم في بناء الأمة الشاهدة على الإنسانية» اقتحام هذه العقبة وهذا الموضوع المهجور من خلال نهج التحليل والاستنباط والنقد. فبالنسبة لمقاصد القرآن تم قراءة مبحث «أول ما نزل» ومبحث «آخر ما نزل» من القرآن الكريم قراءة تحليلية استنباطية، وذلك لاستنباط أهم مقاصد القرآن الكريم التي تعيننا في الموضوع. وفي الخطاب الإسلامي وسماته كانت قراءة تحليلية للخطاب الإسلامي والخلل الذي أصابه حتى أهمل دوره الموكل له. أما في مقصد البحث، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية على الإنسانية، فقد كان الاهتمام بنقد الحضارة المعاصرة خاصة عند الغرب، والبحث عن بعض القضايا التي نشترك فيها مع الإنسان لبحث واستنباط ما يمكن للإسلام ومقاصد القرآن الكريم أن يقدمه لتحقيق الشهود الحضاري على هذا الإنسان.

غير أن هناك أسئلة تفرض نفسها في محاولة تحقيق هذا المقصد القرآني:

كيف يمكن تحقيق مقصد الشهود الحضاري على الإنسانية؟

أو ما هو المدخل الأصلح لتنزيل هذا المقصد على الواقع الإنساني المعاصر؟

كيف يمكن تفادي تنزيل مفاجئ غير محسوب المآل لهذا المقصد القرآني؟

---

(١) عقدت الدورة الثالثة في الدار البيضاء، المغرب، من ١٣ إلى ١٥ من شعبان ١٤٣٨/ ٩-١١ مايو ٢٠١٧. وهذا الكتاب هو جامع أعمالها. (المحرر)

لذلك فإن الدراسة ترى أن المدخل الإنساني مهم جدا من أجل النظر في ما يثقل كاهله ويرهقه من أجل التخفيف عنه. وذلك لأن من مقاصد الشريعة رفع الحرج ودرء المفسدة عن الإنسان وجلب المصالح والمنافع له. والبشرية الغارقة في ضنك العيش وقلق الحياة والمصير تحتاج إلى خطاب متزن يبين لها تصورا إسلاميا مخالفا لما تؤمن به، تطمئن إليه وإلى أهدافه الإنسانية النبيلة وليس هدفه الصراع مع الإنسان المخالف له وإقصاؤه ثم السيطرة عليه. إذا أفلح الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية في الدفع بالغرب إلى السماع للصوت الإسلامي ومقاصد القرآن النبيلة سنكون قد قطعنا أشواطًا مهمة من أجل تحقيق مقصد الشهود الحضاري. وفي اعتقادنا أن الوقوف على مكامن الضعف والانهيار التي تجتاح الحضارة الإنسانية/ الغربية في الوقت الراهن ومحاولة عرض البديل الإسلامي عرضا ناجحا علميا معرفيا بعيدا عن منطق الصراع والتنافس السياسي والأيديلوجي هو المدخل الأفيد لتحقيق هذا المقصد القرآني.

١ – الشهود الحضاري على البشرية مقصد قرآني

من حكمة الله عز وجل أنه لم يترك شيئا في هذا الحياة للصدفة، فقد تمثلت في هذا الكون هذه الحقيقة الكبرى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال أيضا: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وتماشيا مع هذه القاعدة فقد خلق الله العباد لمقاصد معينة ولاشك، ولعل من أهمها، إن لم يكن أهمها بإطلاق، هو تحقيق العبودية لله الواحد، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومعلوم أن مجالات العبودية في الإسلام تمتد في مجالات شاسعة وواسعة، إذ تمتد في جوانب الحياة كلها، يكون المسلم فيها مطالبا بالإحسان والإتقان، تقربا إلى الله.

ومن أهم جوانب هذا المقصد الذي له دور حاسم في استمرار الوجود الإسلامي وتحقيق العبودية لله تعالى مقصد الدعوة الإسلامية. وهو ما سنوضحه عند تناول مقاصد «أول ما نزل» من القرآن.

وإذا كانت الدعوة الفردية مهمة وفعالة في التبليغ وإقناع الناس بالدخول إلى دين الله تعالى فإن الدعوة الجماعية، ومحاولة الانفتاح على الأمم وتبليغها الإسلام للقيام بدور الشهادة عليها وعلى البشرية جمعاء، حاجة وضرورة ملحة في الوقت المعاصر خاصة باعتبار القيام بالشهود على البشرية مقصدًا من مقاصد القرآن الكريم.

وهذا المقصد القرآني يمكن استنتاجه انطلاقا من قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣]، ذلك أنه سبحانه حدد لهذه الأمة مقصدا في قرآنه به تكون أمة وسطا وشهيدة على الإنسانية.

ومفردة ﴿شُهَدَاءَ﴾، بالعودة إلى مصادر اللغة الغربية يمكن استنتاج الآتي:

جاء في «**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**» ما يلي: «والمشاهدة: المعاينة. وشهده شهودا: أي حضره، فهو شاهد. وقوم شهود أي حضور»[(١)]. وفي «**معجم مقاييس اللغة**»: «(شهد) الشين والهاء والدال أصل يدل على حضور وعلم وإعلام»[(٢)]. وإلى نفس المعنى ذهب ابن منظور في «**لسان العرب**».[(٣)]

---

(١) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (٣٩٣هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧، ٤٩٤/٢ مادة (ش هـ د).

(٢) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني (٣٩٥هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩، ٢٢١/٣.

(٣)) أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، من٢٣٨/٣ إلى ٢٤١/٣. مادة (ش هـ د).

وعلى العموم، فالشهود الوارد في القرآن الكريم يمكن فهمه لغويا على المعاني الآتية: المعاينة والحضور والعلم والإعلام..

وفي تفسير الآية علق سيد قطب قائلا: «والأمة المسلمة.. اليوم في حاجة إلى التميز بشخصية خاصة.. فتعرف بأنها الأمة الوسط التي أخرجها الله للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها.. الشهيدة على الناس، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله..»(1). وجاء في «التحرير والتنوير»: وقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ علة لجعلهم وسطا.. و(الناس) عام والمراد بهم الأمم الماضون والحاضرون، وهذه الشهادة (...) هي حكم هاته الأمة على الأمم الماضين والحاضرين بتبرير المؤمنين منهم بالرسل المبعوثين في كل زمان وبتضليل الكافرين منهم برسلهم والمكابرين في العكوف على مللهم بعد مجيء ناسخها وظهور الحق، وهذا حكم تاريخي ديني إذا نشأت عليه الأمة نشأت على تعود عرض الحوادث كلها على معيار النقد المصيب»(2).

ويعضد هذا المقصد القرآني العظيم آية أخرى في كتاب الله عز وجل، وهي قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فهذه الأمة قد اختارها الله عز وجل لتكون خير الأمم. وهذه الخيرية تتحقق بتمثل شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبذلك، فمقصد شهود الأمة الإسلامية يكون على الإنسانية جمعاء، ومنها الأمم الماضية، ويكون بالبناء العلمي الرصين، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالحضور الوازن في الساحة العالمية لتبليغ الدعوة إلى الأمم جمعاء قصد رفع ودرء المخاطر

---

(١) سيد قطب (١٣٨٥هـ)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ١/١٢٩.

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ)، **التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ٢/٢٠.

والمفاسد وجلب المنافع والمصالح، حتى تتجنب العيش الضنك وتسير مستقيمة على تقوى الله وهداه، وذلك طبقا لقوله تعال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وكذلك قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

إن تحقيق هذا المقصد يطرح أكثر من سؤال عن الكيفية الأنجح من أجل تحقيقه:

كيف يمكن تحقيق الشهود الحضاري على الإنسانية انطلاقا من مقاصد القرآن؟ أم هل الشهود الحضاري يتحقق بالانكماش على الذات الإسلامية والتغاضي عن الإنسانية وتركها تتخبط في مشاكلها؟ أم يكون بالتفرغ الكامل للعالم وترك الذات الإسلامية عرضة لكل المخاطر؟

الأكيد أن هذا المقصد يتحقق بالانخراط في عمل متكامل وشمولي على جميع الأصعدة لا يغيّبُ جبهة عن أخرى. فالجبهة الذاتية الإسلامية هي صمام الأمان والعنق الاستراتيجي للأمة الذي يقويها ويدعمها. لكن الجبهة الخارجية يمكنها أن تكون حاسمة عندما يستطيع الخطاب الإسلامي استمالتها واستنصاتها لتعرف الإسلام من الطريق السليم ومن المنبع الصافي. وبذلك تصير هذه الجبهة الخارجية الإنسانية دعما ذاتيا لمشروع الأمة الهادف إلى تحقيق الشهود الحضاري على الإنسانية جمعاء.

ولما كان هذا المقصد الإسلامي يتوجه بالخصوص إلى الإنسانية عن طريق إقامة الشهود الحضاري عليها فلابد من البحث عن المدخل الأفضل للوصول إليه. لذلك نقدر أن الإنسانية التي تعيش ظروفا صعبة وحاسمة تحتاج من يخفف عنها، ويأخذ بيدها لتخطي هذه الظرفية العصيبة. وهنا تكمن أهمية هذا المدخل عبر بوابة

عرض المشروع الإسلامي غير السياسي الذي يتمسك بالكتاب والسنة والفهم السليم للشريعة الذي تضبطه الأصول الشرعية والمقاصد الشرعية ومقاصد القرآن العظيم.

٢- مقاصد القرآن الكريم من خلال «أول ما نزل» و«آخر ما نزل»

القرآن الكريم هو معجزة النبي محمد بن عبد الله ﷺ. ولما كانت رسالته هي الخاتمة للرسالات السماوية فقد جعل الله فيها مميزات وخصائص تميزها عن غيرها، ولعل من أهمها الخلود. والخلود يتحقق بقدرة هذه الرسالة على تجاوز الأزمنة والأمكنة. وهذا التجاوز من أهم أسسه الاجتهاد والتجديد في فهم الرسالة لتستجيب لتطلعات الإنسان في كل وقت وفي كل مكان.

إن كتاب الله تعالى بهذا يكون الركن الذي تأوي إليه الأمة كلما حزبها أمر وتعرض مسيرها الحضاري للتعثر. ففيه النص المقطوع بثبوته وهو بمثابة المادة الخام التي يستعين بها الإنسان من أجل الانعتاق من التخلف والنكوص الحضاري لتحقيق الشهود الذي تسعى الأمة جاهدة لتحقيقه.

وإذا كان الشافعي قد قال قديما: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم ١]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل ٤٤]. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل ٨٩]وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]»[1]. فإنه في هذه الظرفية

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ)، الرسالة، تحقيق، أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، ط١، ١٩٤٠، ١٩/١.

العصيبة التي تعرفها الأمة الإسلامية والإنسانية من حولها قد جاءت الفرصة المواتية للرجوع إلى هذا الكنز المعجزة واكتشاف ما يزخر به من معانٍ ومفاهيم وقيم وأصول وقواعد تساهم في بناء مشروع ريادي للأمة الإسلامية تحقق به المبتغى الذي ينتظره المسلمون، وغيرهم، من الأمة.

والرجوع إلى القرآن الكريم للاشتغال عليه له مداخل متعددة ومتنوعة، قد يكون من بينها الوقوف على التفاسير واختيار الأنسب منها للظرفية المعاصرة، أو الوقوف على آيات الأحكام وتفسيرها واستنباط الأحكام التي تناسب الظرفية الحالية، أو انتقاء من النصوص التي لها إيحاءات سياسية باعتبار الأزمة التي تعرفها الأمة عند البعض أزمة سياسية..

تحاول هذه الدراسة ألا تقع في شرك الانتقائية والخلفية المسبقة، لذلك تم اللجوء إلى اللحظات الأولى لتنزيل الكتاب العزيز وما خلّفه من أثر في بناء الشخصية المسلمة للوقوف على أهم معالمها، وكذلك الوقوف على اللحظات الختامية في تنزيله لاستجلاء أهم المعاني والقيم التي ركز عليها الخطاب الرباني اعتقادا منا بأهميتها. وبذلك سيكون بين يدينا ثلة من المقاصد القرآنية التي هي في غاية الأهمية في البناء الحضاري، حيث إن القرآن لا يعرف العبث فما دعا له وما ركز عليه وأعاد التأكيد عليه فهو في مصلحة الأمة يبين لها سبل الهدى والرشاد. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠].

انطلاقا من هذا التأسيس فإن المصادر في علوم القرآن والتفسير تناولت أول ما نزل من القرآن الكريم كما تعرضت لآخر ما نزل منه، وقد وقعت في اختلافات عدة لتحديد الأولية والآخرية. ونحن لا يهمنا التحديد الدقيق لهذا بقدر ما يهمنا السياق العام الذي تم فيه هذا «الأول» و«الآخر» للوصول إلى مقصد وغاية مهمة حددناها في مقاصد القرآن الكريم من أول ما نزل ومن آخره.

أورد صاحب المناهل الرواية الآتية: «روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: إقرأ. قلت: «ما أنا بقارئ». فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. قلت: «ما أنا بقارئ». فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: «ما أنا بقارئ». فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ**﴾ وفي بعض الروايات حتى بلغ ﴿**مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾».[(١)]

وروى البخاري في صحيحه: «حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا حَرْبٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ: أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾ [المدثر: ١]، فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق: ١]، فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾ [المدثر: ١] فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[العلق: ١]، فَقَالَ: لاَ أُخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ، فَاسْتَبْطَنْتُ الوَادِيَ فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ [المدثر: ٢]».[(٢)]

---

(١) محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط٣، ٩٣/١.

(٢) أخرجه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، في **الجامع المسند الصحيح المختصر** =

وقال القرطبي: «وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه. وقيل: بلغه من المشركين سوء قولٍ فيه، فاشتد عليه فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وقيل: كان هذا في ابتداء ما أوحى إليه، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال: «زمّلوني دثروني» روى معناه عن ابن عباس. وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزّمل والمدّثر في أوّل الأمر؛ لأنه لم يكن بعد ادّثر شيئاً من تبليغ الرسالة».[1]

وقال الشوكاني: «وهذا الخطاب للنبيّ ﷺ، وقد اختلف في معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل ﷺ بثيابه في أوّل ما جاءه جبريل بالوحي فرقاً منه حتى أنس به. وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالنبوّة، والملتزم للرسالة. وبهذا قال عكرمة.. وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالقرآن. وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه. وقيل: بلغه من المشركين سوء قول، فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]. وقد ثبت أن النبيّ ﷺ لما سمع صوت الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: «زملوني دثروني « وكان خطابه ﷺ بهذا الخطاب في أول نزول الوحي».[2]

من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، عن جابر أبي سلمة في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وربك فكبر﴾، ١٦٢/٦.

(١) أبو عبد اللهِ محمد بن أحمد بنِ أبي بكر بن فرح شمس الدين القرطبي (٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٤، ٣٢/١٩.

(٢) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (١٢٥٠هـ)، **فتح القدير**، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ٣٧٨/٥.

وبخصوص سورة القلم، يقول سيد قطب: «لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها. كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولا، وأن سائرها نزل أخيرا، ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال. لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله ﷺ وقولهم: إنه مجنون! والروايات التي تقول: إن هذه السورة هي الثانية في النزول بعد سورة العلق كثيرة، ومن المتفق عليه في ترتيب المصاحف المختلفة أنها هي السورة الثانية ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا. حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة، التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية، في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها، فتقول عن رسول الله ﷺ تلك القولة الفاجرة وأخذ القرآن يردها وينفيها، ويهدد المناهضين للدعوة، ذلك التهديد الوارد في السورة».(١)

لا يهمنا الترتيب الدقيق الصحيح لأول ما نزل من هاته الآيات أو السور، لأن ذلك اختلف فيه عدد كبير من العلماء. ورغم أن هذه الاختلافات قد بررها العلماء ودافع كل فريق عن رأيه بما يملك من الحجج فيرجح رأيا مقابل آخر، كالتمييز بين أول ما نزل سورة كاملة وأول ما نزل من الآيات وأول ما نزل في شأن الدعوة والتبليغ وأول ما نزل للرسالة وأول ما نزل للنبوة...(٢) فإن هذه الآيات تعتبر في نهاية المطاف الآيات الأولى التي نزلت من القرآن الكريم بغض النظر عن الترتيب والأسبقية.

---

(١) سيد قطب (١٣٨٥هـ)، **في ظلال القرآن**، ٣٦٥٠/٦.

(٢) مناع القطان، **مباحث في علوم القرآن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤، ١٩٨٣، ص٦٨. وكذلك، علال الفاسي، **المدخل لعلوم القرآن والتفسير**، إعداد وتصحيح، عبد الرحمن بن العربي الحريشي، مطبعة الدار البيضاء ١٩٨٨، ص٢٤.

وبذلك فنحن أمام ثروة مهمة من القرآن الكريم في تأسيس اللبنات الأولى من تشكيل شخصية الإنسان المسلم خاصة، والأمة الإسلامية عامة. وهو ما يمكننا من الوقوف على مقاصد القرآن الكريم لهذه المرحلة المهمة في بناء نفسية وعقلية الإنسان المسلم والأمة الإسلامية التي سيشكل الشهود الحضاري أهم مقصد من مقاصد القرآن الكريم حتى تسعى جاهدة من أجل تحقيقه.

هذه الثروة تتحدد في الآيات الواردة في السور الآتية: مطلع سورة العلق، ومطلع سورة المزمل، ومطلع سورة المدثر، ومطلع سورة القلم.

في مطلع سورة العلق حث واضح على التعلم والسعي للعلم. والعلم مرتبط باسم الله هنا، كما أن مجالاته متنوعة ومتعددة تتعلق بآيات الله في الخلق وفي الأنفس مع الإشارة إلى كرامة الله تعالى الخالق الذي علم الإنسان. لينجلي بوضوح المقصد من هذه الآيات المتمثل في البناء العلمي الذي يمثل رافدا مهما من روافد التقدم والتنمية وسلاحا فعالا في مواجهة التخلف والنكوص. فدون تأسيس علمي ستبقى أي محاولة للتقدم والنهوض عرجاء وعاجزة عن مواكبة التحديات أمام الأمة الإسلامية واللحاق بالركب الحضاري من أجل تحقيق الشهود الحضاري المنشود.

وفي مطلع سورة المزمل دعوة صريحة لقيام الليل والتبتل والصلاة في جوف الليل وقراءة القرآن وترتيله، وذلك لأن ما ينتظر الأمة الإسلامية هو بمثابة عبء ثقيل جدا وجب التهيؤ والإعداد له. ولعل المقصد هنا يتعلق بالبناء الروحي وتزكية النفس لتسمو وتتعالى عن تراب الماديات إلى علياء الروحيات، وهو ما يشكل زادا قويا ربانيا يمكن الفرد والأمة على حد سواء من الصمود أمام إغراء شياطين الدنيا التي تحاول إسقاط الإنسان في وحل الرذيلة والإثم والذنوب ومن ثم التخلي عن الدور المنوط بالأمة المتمثل في الشهود الحضاري على الإنسانية جمعاء.

واهتم مطلع سورة المدثر بموضوع آخر حيث فيها أمر واضح بالقيام بالإنذار والتبليغ وتوحيد الله وتكبيره والتطهر الحسي والمادي مع عدم المن. وقد يكون المقصد الأهم هنا هو التبليغ والبناء الدعوي. فكل فكرة عجزت عن التبليغ والترويج لما تملك من قناعات وأفكار لن تتمكن من النجاح والانتشار وسط الجماهير. وكذلك الإسلام إذا لم تكن له قدرات وطاقات ولم يمتلك آلة دعوية وإعلامية تناسب الزمان والمكان فلن يستطيع القيام بدوره الريادي للشهود على الإنسانية.

أما مطلع سورة القلم ففيه دعوة إلى التمسك بالأخلاق والفضائل التي دعا إليها الإسلام ومنها التي كانت عليها الأمم السابقة وتتوافق مع الإسلام. وذلك لما تمثله الأخلاق عند العقلاء والحكماء من الناس ولما للأخلاق أيضا من وقع على الفطرة الإنسانية. وقد يكون المقصد القرآني هنا هو البناء الأخلاقي الذي يعد لبنة مهمة من أهم لبنات بناء الأمة الشاهدة على الإنسانية.

في المحصلة نحن أمام المقاصد الآتية: البناء العلمي، والبناء الروحي، والبناء الدعوي، والبناء الأخلاقي.

هذا فيما يخص «أول ما نزل».

أما بخصوص «آخر ما نزل»، فقد روى البخاري في **صحيحه**: «حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الرِّبَا».(١)

وفي «**البرهان في علوم القرآن**» ذكر الزركشي رأيا آخر مفاده أن آخر ما نزل من القرآن الكريم آية ﴿**فإن تولوا**﴾ أو (آية الكلالة)، حيث قال: «وَقَالَ السُّدِّيُّ

---

(١) أخرجه البخاري، **الصحيح**، عن ابن عباس في كتاب التفسير باب، ﴿**واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله**﴾.

آخِرُ مَا نَزَلَ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[١] فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ بَرَاءَةٌ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكلالة﴾ وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ.

وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِهِ آخِرُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ كَامِلَةً سُورَةُ بَرَاءَةٌ وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ خَاتِمَةُ النِّسَاءِ وَذَكَرَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾».[٢]

وذهب الزرقاني في «**مناهل العرفان**» إلى «أن آخر ما نزل آية الدين في سورة البقرة أيضا وهي قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهي أطول آية في القرآن».[٣]

وفي رأي آخر ذكر «أنه آية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣]، واستدلوا بما أخرجه البخاري وغيره»[٤].

هذه أهم التوجهات والآراء التي وردت في التفاسير أو كتب الحديث أو كتب علوم القرآن بخصوص آخر ما نزل من القرآن الكريم. وهي تعرف أيضا

---

(١) أخرجه البخاري، **الصحيح**، عن البراء بن عازب في كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(٢) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط١، ١٩٥٧، ٢٠٩/١.

(٣) محمد عبد العظيم الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ٩٧/١.

(٤) محمد عبد العظيم الزرقاني، (م.ن)، ٩٨/١.

اختلافات بين العلماء تعكس الزاوية التي ينظر منها العلماء في تحديد هذا «الآخر» مما نزل من القرآن. وإذا كان من الصعب -أو بالأحرى- لا يهمنا تحديد أول ما نزل، فإننا لا نهتم كثيرا بالآخر بكل دقة بقدر ما نهتم بالأواخر جميعها لما تشكل بالنسبة لنا هنا من أهمية من أجل استخلاص المقاصد القرآنية من هذا النوع من النصوص.

وهكذا فنحن أمام الآيات الآتية إجمالا: آية الربا، آية ﴿**فإن تولوا**﴾، آية الكلالة، آية الدين، آية ﴿**ومن يقتل مؤمنا**﴾:

– فآية الربا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٢٧٨]، تدعو إلى القطع مع كل أنواع الاستغلال والابتزاز الاقتصادي وتحذر منه.

– وآية: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [التوبة: ١٢٩]، فيها نهي عن الإدبار وعن الإعراض عن النبي ﷺ الحريص على هداية المؤمنين، ويشق عليه مضرتهم وعنتهم، وكذلك نهي عن الإعراض عن دعوته العظيمة، ودعوة أيضا إلى الاستمساك بالحق رغم كل الظروف والأحوال.

– وفي آية الكلالة: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ**﴾ [النساء: ١٧٦] دعوة إلى إعطاء كل ذي حق حقه والتمسك بالشريعة وأحكامها فالاستمساك بها عاصم من كل ضر وضياع حق.

– أما آية الدين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ..**﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهي أطول آية في القرآن الكريم ففيها دعوة إلى كتابة الديون وتوثيقها للحفاظ على حقوق الناس وعدم ضياعها.

- وفي آية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] دليل على حرمة الدم والوعيد الشديد على استباحته.

بهذا سنكون أمام المقاصد القرآنية الآتية: الاهتمام بالبعد الاقتصادي والابتعاد عن الاحتكار والاستهلاك وما يرتبط بالاقتصاد الربوي، الارتباط بالله والتمسك بحبله المتين في كل الأحوال، العض على شريعته والتمسك بأحكامها، الكتابة والتوثيق، حرمة الدم وتحريم القتل.

قبل الاستمرار لا بد من الإشارة وبعجل إلى أمر جدير بالتأمل: دين يبدأ رسالته بالقراءة ويختمها بالكتابة (في آية الدين تكرر أصل «ك ت ب» قرابة عشر مرات).. أليس جديرا بأن تكون أمته شاهدة على الإنسانية؟

ما بين بداية النزول وآخره تحصل لدينا المقاصد الآتية: تحصيل العلم، التمسك بالأخلاق العالية ومنها تحريم قتل النفس، الدعوة إلى الله والتمسك بشريعته، الإيمان وتزكية النفس، بناء اقتصاد متين يحرم الظلم واستغلال الفقراء (الربا).

٣- سمات الخطاب الإسلامي الشاهد على الإنسانية

قامت الرسالة السماوية التي جاء بها سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ على التبليغ والبيان. فقد كرس حياته وجهوده لتبليغ هذه الدعوة إلى الناس بالأسلوب الأمثل ليستنصتهم لينقذهم من النار ومن عذاب الله بداية، ثم ليكونوا بعد ذلك جنودا من جنود هذه الدعوة حتى تصل إلى كل الآفاق الممكنة. ولما كان رسول الله ﷺ هو القدوة الأولى بالنسبة لنا في كل شيء فإنه من الواجب اقتفاء أثره في الدعوة الإسلامية والاهتداء بهدي القرآن الكريم ومقاصده حتى نكون على بصيرة ورشاد.

وخطاب الدعوة الإسلامية المعاصرة في مراحل متعددة غابت عنه أهم ملامح وسمات هدي النبي ﷺ وتوجيه المقاصد، لذلك جانب الصواب في مجالات شتى. يهمنا هنا الوقوف على بعض الملامح الكبرى التي تشكل خطابا إسلاميا ناجحا بإمكانه تحقيق الشهود الحضاري على الإنسانية انطلاقا من مقاصد القرآن الكريم. ولاشك أن هذه السمات متعددة، غير أننا نركز على الآتي مما يناسب المقام.

أ – النظرة الكلية

ميزة خطاب القرآن الكريم الموجه إلى البشرية هي النظرة الشاملة المهيمنة على الرسالات وعلى الإنسانية ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقد أفاد القرطبي أن مهيمنا هنا بمعنى عاليا ومرتفعا(١)، وذهب الزمخشري إلى أنها بمعنى رقيبا.(٢)

والقصد من النظرة الكلية النظر إلى قضايا الإنسان وقضايا المسلمين نظرة شاملة تهتم بالأصول والقواعد ولا تنزل إلى جزئياتها وتفريعاتها فتفقد البوصلة وينعدم لديها السداد والصواب.

وقد يكون من أخطر ما يصيب الخطاب الإسلامي عند فقدان النظرة الكلية اللهث وراء الجزئيات والتفاصيل ظنا منه أن هذا هو المقصود فيبتعد وينشغل عن الكليات والأصول فيضطرب منطقه وينحرف منهجه فيخلط بين الثابت والمتغير، والمقبول والمردود، والسنة والبدعة، والفردي والجماعي، وفرض العين وفرض الكفاية. آنذاك يميل إلى الارتجال عوض التخطيط والموسمية عوض

---

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ٢١٠/٦.

(٢) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري (٥٣٨هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤، ٦٤٠/١.

الاستمرارية.. فيفقد المعايير الدقيقة في الأخذ والترك، والميل إلى الإطلاق والتحيز للذات أو للحزب أو للفئة أو للطائفة دون أي سند شرعي واضح[١].

إن غياب النظرة الكلية في الخطاب الإسلامي قزمت اهتماماته فصار أقصى ما يتمناه كثير من الدعاة أو الأتباع من الأمة الإسلامية هو نجاح حزب سياسي إسلامي في دولة ما. والحقيقة أن نجاح حزب بتصور إسلامي أصيل لا تخفى مكاسبه وعودته بالنفع على الأمة بشرط وضع هذا النجاح في نصابه الحقيقي، وهو ما يغيب -في الواقع- حتى صار العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية محصورين في العمل السياسي واللهث وراء المقاعد البرلمانية والسعي الحثيث نحو الأصوات في غياب البناء الحضاري الشامل الذي يؤهل الأمة لأداء دورها المتمثل في الشهود على الإنسانية.

يقول مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «لا أدري إن لاحظت -ولكن كان بإمكاني أن ألاحظ..- أن النخبة الإسلامية قد استولى عليها حب الظهور في المراتب السياسية، فقد أهملت المشكلات الرئيسية التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم، بينما لو كان لهذه النخبة نصيب من الإدراك والنزاهة والتواضع لحلت تلك المشكلات منذ ثلاثين سنة. ولكن القوم يتصارعون على أن يصبحوا (زعماء) و(أبطال) المعارك الانتخابية، فسلكوا بشعوبهم ملتويات السياسة ومنعرجاتها بدعوى أنهم يختصرون الطريق، في حين أنهم زادوا في طولها»[٢]. للإشارة فهذا النص من كتاب «**مذكرات شاهد للقرن**» كان قد كتب في ستينيات القرن الماضي وهو يصف حال النخبة الإسلامية في تلك الفترة فإن وضعها قد استمر على تلك الحالة إن لم يكن قد استفحل أكثر.

---

(١) طه جابر العلواني، **مقاصد الشريعة**، دار الهادي، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص١٣٠-١٣١.
(٢) مالك بن نبي، **مذكرات شاهد للقرن**، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٤، ص٢٢٨.

التي يكون عليها المخاطبون بحيث لا يُرى من الخطاب الإسلامي إلا لون واحد. ولا يخلو هذا التعميم.. من الكثير من التعسف والتكلف».[١]

إن اعتماد الخطاب الإسلامي الرؤية الكلية المنطلقة من التصور الإسلامي السليم سيكون رصيدا مهما وذخرا عظيما لتجاوز الكثير من العقبات والمثبطات التي كانت ولا تزال تُعوِّق نجاح الدعوة الإسلامية عن اختراق مجالات عدة أغفلتها، ولم تضعها ضمن اهتماماتها وأولوياتها. وقد يكون هذا من أهم أسباب تخلف القيام بدور الشهود الحضاري، الذي نيط بالأمة الإسلامية، على الإنسانية.

ب- مراعاة المآل

الشريعة الإسلامية تراعي المآل وتحتاط له. ويؤكد هذا عديد النصوص من الكتاب والسنة النبوية. وترتب على هذه المراعاة في الشريعة الإسلامية اهتمام الفقهاء والأصوليين بالمآل، فـ«الفعل يشرع لما يترتب عليه من المصالح، ويمنع لما يؤدي إليه من المفاسد، وأن المجتهد إذا أداه اجتهاده إلى التوصل إلى معرفة المصلحة التي من أجلها شرع الفعل، أو المفسدة التي من أجلها منع، فإنه يحكم بمشروعية هذا الفعل طالما كان محققا للمصلحة التي قصد به تحقيقها، فإذا كان الفعل في بعض الحالات، غير محصل لهذه المصلحة، أو كان مع تحصيله لها، مفوتا لمصلحة أهم أو مؤديا إلى حدوث ضرر أكبر، منع المجتهد منه».[٢]

وفي القواعد الأصولية صاغ العلماء جملة من القواعد التي انبنت على مراعاة المآل، ومنها:

---

(١) عمر عبيد حسنة، **في منهجية الاقتداء**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ص١٣٢-١٣٣.

(٢) حسين حامد حسان، **نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي**، مكتبة المتنبي، القاهرة، ١٩٨١، ص١٩٤.

«الأمور بمقاصدها»[١]، ف «الحكم على تصرف الإنسان بكونه واجبا أو حراما أو مندوبا أو مكروها أو مباحا، أو بكونه مثابا عليه أو معاقبا. كل ذلك إنما يكون تابعا لقصد المكلف وهدفه من وراء ذلك التصرف».[٢]

«الضرر يزال»[٣]، «يجب إزالة الضرر بعد وقوعه، كما يجب دفعه قبل وقوعه.. ومن أمثلة هذه القاعدة.. إذا أصابت آكلة يد إنسان أو رجله وخشي أن يسري المرض إلى باقي جسمه، وجب عليه قطع العضو المتآكل إزالة للضرر ودفعا له عن باقي الجسم»[٤]، «لا ضرر ولا ضرار»[٥]، «درء المفاسد أولى من جلب المصالح»[٦]، «المشرف على الزوال هل يعطى حكم الزائل».[٧]

«النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة. وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين

---

(١) جلال الدين السيوطي، **الأشباه والنظائر في الفروع**، دار الفكر، بيروت، (د، ت)، ص٦. أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، **شرح القواعد الفقهية**، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٩٧٣، ص٤٧.

(٢) محمد صدقي بن أحمد آل بورنو وأبو الحارث الغزي، **موسوعة القواعد الفقهية**، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٧، ص١٢٥/٢.

(٣) زين الدين بن إبراهيم بن محمد، ابن نجيم (٩٧٠هـ)، **الأشباه والنظائر**، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٨٣، ص٢٢. أحمد الندوي، **القواعد الفقهية (مفهومها، نشأتها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، مهمتها، تطبيقاتها)**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩١، ص١٨٤.

(٤) محمد صدقي بن أحمد آل بورنو وأبو الحارث الغزي، **موسوعة القواعد الفقهية**، ٢٦١/٥.

(٥) محمد تقي الفقيه، **قواعد الفقه**، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، ص١٨٤.

(٦) أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٧١هـ)، **الأشباه والنظائر**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١، ١٠٥/١.

(٧) أبو عبد الله، بدر الدين، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، **المنثور في القواعد**، تحقيق تيسير فائق أحمد محمود، مراجعة عبد الستار أبوغدة، وزارة الأوقاف، الكويت، ط١، ١٩٨٢، ١٦٦/٣.

بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل مشروعا لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ..»[١]، فالخطاب الإسلامي إذا لم يأخذ بعين الاعتبار المآل في تخطيطه وفي استراتيجيته سيظل يتخبط في ارتجاليته ليحصد الإخفاق بعد الإخفاق، وإن كان في كثير من الأحيان يظن أنه يجني النجاح. وأصول الفقه هي أيضا، بالإضافة إلى كونها منهج نظر في فهم النص الشرعي، منهج علمي أنتجه العقل المسلم يمكن الاقتداء به في مجالات متنوعة منها هنا الدعوة والخطاب الإسلامي. وبالفعل فان مراعاة المآل ستساعد على إنتاج خطاب دعوي رصين يستند إلى ثوابت الإسلام العظمى ويركز على أولويات المرحلة دون إغفال مستقبل الدعوة والإنسان المخاطب. وذلك «..لطبيعة هذا العصر وخصائصه وكثرة حوادثه وضخامة النتائج المترتبة على ذلك وتنوعها وتداخلها، فبوسع المجتهد الفردي أو المؤسسة الاجتهادية أن تقدر نتائج كثير من الأفعال الإنسانية ومآلات كثير من الحوادث والوقائع لتحكم عليها بحسب تلك النتائج والمآلات، وبحسب مقابلة تلك النتائج بمقاصد الشرع وغاياته..»[٢].

لقد ضيعت الأمة الإسلامية العديد من الدول في المرحلة المتأخرة لأنها لم تحسن مراعاة مآل العديد من تحالفاتها أو حينما لم تحسن تدبير خلافاتها مع جيرانها ولم تدقق في عدوها الحقيقي.. ومع مرور الوقت تبين سوء تدبيرها لأنها لم تراع مآل تحالفاتها ومآل اختيار أعدائها.. وكم من مصلحة عاجلة هي مضرة في مآلها، وكم من

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الشاطبى (٧٩٠هـ)، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق عبد الله دراز، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١، ٢٠٠١، ١٥٣/٤-١٥٤.

(٢) نور الدين مختار الخادمي، **أبحاث في مقاصد الشريعة**، مؤسسة المعارف، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص٦٨.

تحالف آني هو تفكك أكيد في المستقبل.. ومع ذلك التقمت الدعوة الإسلامية الطعم، مع الأسف الشديد.

وهذا أيضا من أهم مظاهر الخلل الذي أصاب العقل المسلم عموما وخطاب الدعوة الإسلامية المعاصرة، فغيبت من مخططاتها العديد من الأولويات وكذلك تخلت عن العديد من الأهداف التي لم ترها ولم تفكر فيها أصلا، أو ظنت أنها بعيدة المآل.

جـ - البعد الإنساني

البعد الإنساني بعد مهم في الشريعة الإسلامية، وقد كان حاضرا في عهد النبوة وفي وقت الصحابة والجيل الأول من أجيال الأمة الإسلامية. ويكفي أن نعرف أن تسع عشرة آية قرآنية تنادي الخلق جميعًا ﴿**يا أيها الناس**﴾، سوى الآيات التي تنادي الإنسان ﴿**يا أيها الإنسان**﴾.

إن البعد الإنساني بعد أصيل في هذا الدين، وللأسف الشديد فقد أغفلته الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي المعاصر مما أثقل كاهل هذا الفكر وهو يحاول الاقتراب من الناس ومن المجتمعات الأخرى البعيدة عن عالمنا. «..فالمتتبع للآيات التي تخاطب ﴿**يا أيها الناس**﴾ أو ﴿**يا أيها الإنسان**﴾ لا تقتصر على الدعوة إلى الإيمان وتدلل عليه، وإن كان هذا هو الأغلب الأعم، ولكنها تدعو كذلك ضمن خطابها إلى أصول كلية لا تتوقف الاستجابة لها على الإيمان المسبق، لأنها تعتمد على العقل والمنطق وتخاطب الفطرة وتدعو إلى ما فيه مصلحة عامة للبشر لا ينازع فيها أحد..».(١)

إننا نقصد هنا بالبعد الإنساني في الخطاب الإسلامي توسيع اهتماماته لتصل إلى اهتمامات البشرية جمعاء والمساهمة في حل مشاكلها والتخفيف عنها من حيث إن الدعوة الإسلامية ليست حكرا على العرب أو المسلمين وحدهم. بل هي أمانة في

---

(١) جمال الدين عطية، **نحو تفعيل مقاصد الشريعة**، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠١، ص١٦٥.

أعناقهم ومكلفون بأدائها وإيصالها إلى كل الناس في كل مكان بغض النظر عن اللون واللسان والمعتقد والمكان.. خاصة و«إن حماية إنسانية الإسلام، هي مقصد الشريعة وغايتها، وذلك أن الشريعة، إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم، وأن مصالحهم لا تتحقق إلا بحماية الكليات الخمس.. وهي في الحقيقة، حقوق الإنسان الأساسية التي لا تتحقق إنسانيته، وتحفظ كرامته، إلا بتوفيرها، وحمايتها..».(١)

وإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه نوحا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بصنع فلك لإنقاذ الحياة حين قال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فإننا أيضا مطالبون بفلك لإنقاذ الناس من المشاكل الموجعة والحارقة التي تهددهم في وجودهم. وهذا الفلك في تقديرنا لن يكون إلا خطابا إنسانيا يرتكز على الثوابت في الشريعة ويراعي مقاصد القرآن الكريم، وذلك من أجل تحقيق الدور العظيم الموكول للأمة الإسلامية دور الشهود على البشرية(٢).

٤ - تحقيق الشهود الحضاري على الإنسانية

إلى هنا في محصلتنا الآتي:

مقاصد القرآن من خلال أول وآخر ما نزل وبالتأكيد يعضدها باقي النصوص من الكتاب والسنة: البناء العلمي، والبناء الأخلاقي (ومنه تحريم قتل النفس)، والبناء الدعوي، والبناء الروحي وتزكية النفس، والبناء الاقتصادي.

---

(١) عمر عبيد حسنة، **حتى يتحقق الشهود الحضاري**، المكتب الإسلامي، دمشق، ط١، ١٩٩١، ص١٤٣.

(٢) محمد شهيد، **مراجعات في الفكر المقاصدي**، سلسلة روافد، الكويت، ع، ١١٧، ط١، مايو ٢٠١٥، ص١٥٩.

سمات الخطاب الإسلامي المنشود: الكلية، ومراعاة المآل، والإنسانية.

انطلاقا من هذه الإمكانات نرى أن الشهود الحضاري للأمة الإسلامي يمكن أن يتحقق من خلال العديد من القضايا التي تشترك فيها الإنسانية. فالبشرية بفعل سياستها وفلسفتها التي تقود البشرية على هديها إنما هي في طريقها بالإنسان إلى الدمار والخراب والفناء. والأمة الإسلامية لابد لها من بعث الأمل في الإنسان، وليس المسلم فقط، من أجل إعادة الأمل للعيش المشترك في أمن وأمان.

إن الأمة الإسلامية الموكل لها دور الشهود الحضاري على الإنسانية بإمكانها الآن أكثر من أي وقت مضى أن تنهض بهذه المهمة وتطرح نفسها مساعدا في الحل، وإن كنا نعتقد أصلا في قدرة شريعة الله ودينه الأعظم على تقديم الحلول الناجعة للإنسان في هذه المرحلة الحساسة. ولكن طبيعة الغرب المتسلط المزهو بالتحكم والسيطرة المفتون بفرض أسلوبه وفكره ونمط عيشه تحول دون ذلك. لهذا لابد من الاقتراب منه مراعاة لمصلحة الإنسان وتحقيق الهدف المنشود المتمثل حالا وعاجلا في إنقاذ الإنسان والنجاة به إلى بر الأمان.

ومن المهم الإشارة إلى أن كثيرًا من العقلاء في الغرب بدأوا يدقون ناقوس الخطر لاستشعارهم خطورة الوضع الذي يسوقنا الغرب إليه جميعا بالقهر ودون اختيار منا. ومطلوب من الأمة الإسلامية البحث عن هؤلاء والتحاور معهم قصد تشكيل جبهة للحوار وتقريب وجهات النظر معهم واستنصاتهم حول الإسلام وقيمه وأخلاقه ومقاصده. فهؤلاء هم بمثابة «حنفاء الغرب» في الوقت الراهن تكلمت فطرتهم وحركتهم قيم الإنسان والمعاني المشتركة عند الإنسانية. والحقيقة أن هذا

الحوار والانفتاح على هؤلاء مدخل مهم من مداخل تحقيق الشهود الحضاري الذي نحن بصدد البحث فيه[١].

ومن هؤلاء "لستر ثارو" الذي كتب يقول: «في الثمانينيات واجهت غالبية بلدان العالم تباطؤا في النمو، وارتفاعا في البطالة، وانخفاضا في مستويات المعيشة. ولم يكن مبعث هذا الداء السيئ ضربة من سوء الحظ، وإنما كان نتاج عدد من المشاكل الموجعة ذات الطابع المشترك، والتي نشأت جميعا من اقتصاد عالمي تجاوز علاقاته التعاونية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والتي تطلبت جميعها تطوير أشكال جديدة من التعاون الكوني إذا أراد التوصل إلى حل لها»[٢]. وفي نفس الفصل الذي عنونه بـ «مشاكل موجعة» من الكتاب، ذكر بعض المشاكل في نظره التي تؤرق الكون ومنها مشاكل البيئة واختلالاتها التي تزداد مع توالي الوقت، والاقتصاد العالمي الذي لم يعرف التعافي وإفلاسه..

ويهمنا هنا الإشارة فقط إلى أعقد المشاكل التي تواجه البشرية والتي يمكن للأمة أن تحقق الشهود الحضاري من خلالها على الإنسانية. ونحن هنا لا يهمنا بالضبط الإسهام في وضع الحل بقدر ما يهمنا لفت نظر المفكرين والمتخصصين والنخب للتحرك من أجل طرح الحلول والبحث عن المقترحات التي يمكن طرحها على طاولة الحوار أمام المثقفين والباحثين من الضفة الفكرية والثقافية الأخرى. لذلك نقترح أهم هذه المشاكل الحارقة والموجعة والمستعجلة التي تقض مضجع العقلاء والحكماء في هذا الكون بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية أو الجغرافية أو العرقية.. وهي كالآتي:

---

(١) محمد شهيد، **في المشترك الإنساني، تأسيس مقاصدي**، طوب بريس، الرباط، ط١، ٢٠١٧، ص١٨٧.

(٢) لستر ثارو، **الصراع على القمة**، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع ٢٠٤، يناير ٢٠٠٨، ص٢٦٧.

أ- إنسان ضائع مشتت الذهن (إنسان ما بعد الحداثة)

منذ قرون والمنتوج الفلسفي والفكري الغربي هو الذي يقود العالم ومن ضمنه طبعا العالم الإسلامي. ومن آخر إبداعات الغرب فلسفة «الحداثة» وفلسفة «ما بعد الحداثة». وقد عرفت ستينيات القرن العشرين انتشار وسيطرة الفلسفة والفكر الماركسي -خصوصا في فرنسا- والبنيوي.. غير أنه مع مطلع السبعينيات بدأ فجر جديد سمته الأساس فلسفة وثقافة جديدة صبت نقدها اللاذع على الماركسية والبنيوية، تلك هي ما يعرف بفلسفة ما بعد الحداثة.

من جهة أخرى، فإن عصر الحداثة الذي اشتهر بالسيطرة المطلقة الكاملة للنزعة العلمية، لذلك «لقد كرس كل من عصر النهضة والأنوار فكرة العقل المتحرر من ربقة تحالفه مع الإيمان الكنسي، ثم المتسلح بالأفكار الجديدة المناهضة لتقاليد القرون الوسطى على اختلافها كمحرك للتاريخ وكدافع له في الاتجاه الصاعد. من هنا جاءت فكرة الحداثة وانتصر معها الاعتقاد بأن القديم والماضي مرادفان للجهل والظلامية والضلال في حين أصبح الحاضر، والمستقبل خصوصا، مجالا للأفكار المتحررة ولتحقيق عظمة الإنسان وتوسيع هيمنته على العالم. والحق أن الاكتشافات والثورة العلمية ثم الثورة الصناعية والتقنية لم تكن إلا لتزيد العقل الغربي ثقة بنفسه وجرأة على الإفصاح عن مشروعه الهادف إلى نقل الفردوس المفقود من السماء إلى الأرض»[١]. وهكذا فقد صار العلم إيديولوجيا «جاهزا للدخول في خدمة حروب الإبادة الاستعمارية وصراع القوميات والطبقات (أغنياء وفقراء) والأجناس (رجال ونساء) والأجيال (كبار وصغار)..»[٢]. إن

---

(١) ألين تورين، **نقد الحداثة**، ترجمة عقيل الشيخ حسين، نشر على حلقات بمجلة **المنطلق**، بيروت، ع ١٠٨/١٠٩، صيف وخريف ١٤١٥/١٩٩٤، ص١٤٤.

(٢) ألين تورين (م. ن)، ص١٤٥.

العلم أصبح سيفا مسلطا على الرقاب، حتى غدا دينا جديدا، بفعل تمكينه من السلطة المطلقة والعليا، فالقول قوله الفصل والحكم حكمه النهائي.

أمام هذه الإطلاقية، وأمام هذا «التطرف» العلمي، سوف يبرز فكر جديد وتوجه جديد مناقض للعلم. وصار التشكيك هو الطاغي وصارت النسبية في أفضل الأحيان هي المخرج. فالحقيقة والتقدم والثورة.. وكل المفاهيم التي أسستها الحداثة، صارت مهددة وصارت في مهب الريح. بل إن الحداثة التي وصلت بالعالم إلى النهايات ومنها نهاية التاريخ وسيطرة الديمقراطية، هذه النهايات هي التي سوف توقد فتيل ما بعد الحداثة إذ هي التي سوف تعلن إفلاس وانهيار الحقيقة والعلم والتقدم.. ومن ثم دخول الشك وانهيار اليقين في المعرفة العلمية.. ولذلك فقد وصف بعض فلاسفة العصر فلسفة ما بعد الحداثة بأنها «..تفتقر إلى مشروعية ما هو صادق وما هو عادل..».[١]

وإذا كان من الصعب تعريف فلسفة ما بعد الحداثة[٢]، فإنه من الممكن الإشارة إلى بعض خصوصياتها وبعض مميزاتها، ذلك أنها فكر «..ينكر النظريات الكبرى التي تحاول تقديم تفسير شمولي للظواهر وتتخذ شكل منظومات كبرى مغلقة نموذجها الإيديلوجيات الكبرى، كما يتبنى هذا الفكر تصورا انفصاليا وفوضويا للزمن، ومنظورا براغماتيا للحقيقة وميلا إلى إلغاء الذات.. وإلغاء المراكز والمركزية نفسها دفاعا عن التشتت والفوضى والتشعب.. وإعادة إدماج الوهم في الصيرورة، وإحلال الاختلاف محل الهوية، والسطوح والثنيات مكان الأعماق، والخنثوية محل الذكورة، إلخ..».[٣]

---

(١) أحمد عبد الحليم عطية، **ليوتار والوضع ما بعد الحداثي**، دار الفارابي، لبنان، ٢٠١١، ص١٠.

(٢) بيتر بروكر، وآخرون، **الحداثة وما بعد الحداثة**، تعريب عبد الوهاب علوب، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٥، ص٧.

(٣) محمد سبيلا، **الحداثة وما بعد الحداثة**، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط١، ٢٠٠٠، ص٧٠.

العلم أصبح سيفا مسلطا على الرقاب، حتى غدا دينا جديدا، بفعل تمكينه من السلطة المطلقة والعليا، فالقول قوله الفصل والحكم حكمه النهائي.

أمام هذه الإطلاقية، وأمام هذا «التطرف» العلمي، سوف يبرز فكر جديد وتوجه جديد مناقض للعلم. وصار التشكيك هو الطاغي وصارت النسبية في أفضل الأحيان هي المخرج. فالحقيقة والتقدم والثورة.. وكل المفاهيم التي أسستها الحداثة، صارت مهددة وصارت في مهب الريح. بل إن الحداثة التي وصلت بالعالم إلى النهايات ومنها نهاية التاريخ وسيطرة الديمقراطية، هذه النهايات هي التي سوف توقد فتيل ما بعد الحداثة إذ هي التي سوف تعلن إفلاس وانهيار الحقيقة والعلم والتقدم.. ومن ثم دخول الشك وانهيار اليقين في المعرفة العلمية.. ولذلك فقد وصف بعض فلاسفة العصر فلسفة ما بعد الحداثة بأنها «..تفتقر إلى مشروعية ما هو صادق وما هو عادل..».[١]

وإذا كان من الصعب تعريف فلسفة ما بعد الحداثة[٢]، فإنه من الممكن الإشارة إلى بعض خصوصياتها وبعض مميزاتها، ذلك أنها فكر «..ينكر النظريات الكبرى التي تحاول تقديم تفسير شمولي للظواهر وتتخذ شكل منظومات كبرى مغلقة نموذجها الإيديولوجيات الكبرى، كما يتبنى هذا الفكر تصورا انفصاليا وفوضويا للزمن، ومنظورا براغماتيا للحقيقة وميلا إلى إلغاء الذات.. وإلغاء المراكز والمركزية نفسها دفاعا عن التشتت والفوضى والتشعب.. وإعادة إدماج الوهم في الصيرورة، وإحلال الاختلاف محل الهوية، والسطوح والثنيات مكان الأعماق، والخنثوية محل الذكورة، إلخ..».[٣]

---

(١) أحمد عبد الحليم عطية، **ليوتار والوضع ما بعد الحداثي**، دار الفارابي، لبنان، ٢٠١١، ص١٠.

(٢) بيتر بروكر، وآخرون، **الحداثة وما بعد الحداثة**، تعريب عبد الوهاب علوب، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٥، ص٧.

(٣) محمد سبيلا، **الحداثة وما بعد الحداثة**، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط١، ٢٠٠٠، ص٧٠.

وبذلك فالسعي نحو المعرفة والحقيقة سوف يتحول إلى عدمية وأصبح السوق أو التوزيع ومبدأ الطلب والعرض هو الذي ينظم الحياة ويسيطر عليها في غياب تام للضوابط والمبادئ والأخلاق. مما سيفسح المجال للسجالات والتنافرات والتنازع مع غياب الحسم واتخاذ الموقف الصحيح الخاضع للقيم والضوابط.

هذا الوضع سوف يشيع غياب الاستقرار في الذهن والثقافة والسياسة والاقتصاد ويبعثر الأولويات في جميع المجالات.. مما سوف يدفع بالبشرية اتجاه المجهول واتجاه ما لا يعرف مآله. فبدعوى حقوق الإنسان والمساواة سوف تتمتع جميع الأطراف بالمشروعية في التخطيط واتخاذ الموقف واختيار القرارات المناسبة، مما يفسح المجال أمام الفوضى والتسيب، فظهرت الحركات المثلية والحركات النسوية وحركات تقرير المصير والانفصال وحركات التحرر من القيم والأخلاق...

لقد امتلك كل واحد الحق في التعبير، بل في الاجتهاد واتخاذ القرار الفاصل، بغض النظر عن المستوى العلمي والأخلاقي الذي يمتلكه، حيث لم يعد للقيم مكانة ومعيار إذ أصبحت خارج كل الحسابات!!

أصبحت الدول والمؤسسات السياسية تتخذ القرار الذي يناسب مصالحها الضيقة بغض النظر عن كل المعايير التي تخص الشعوب والأمم الأخرى مهما كان مستواها الثقافي والاقتصادي. فقد تستعمر شعوب وقد تذل وتباد..إذا كان المقابل هو الحصول على بعض براميل من البترول أو بعض «الكيلواط» من الطاقة !!

وفي الاقتصاد أصبح الشغل الشاغل للإنسان المعاصر هو الاستهلاك ولاشيء غير المتعة واللذة، ولا يهم على حساب من !! ومع الاستهلاك والإفراط في الإنفاق والإسراف فإن أكبر ضحية صارت هي البيئة! فالإنسان يستهلك ويتلذذ بتلويث محيطه وتدمير البيئة دون أن يعير الاهتمام لما حوله ومن حوله فاختلط الدمار والخراب بالعبث والفوضى وانعدام المعنى وغيابه.

ولعل من أكبر مخاطر مرحلة الـ «ما بعد حداثي»، بالإضافة إلى ما سبق، هو التشتت الذهني الكبير الذي يعرفه الإنسان المعاصر، ومنه العالم الإسلامي. ففي الفكر والثقافة يجد نفسه أمام تدفق فكري هائل وكبير، وفي السياسة والإعلام انفجار إعلامي كبير جدا يكاد لا يصدق، وفي الاجتماع نظريات متعددة متنافرة، وفي الاقتصاد آراء متصارعة تجمع بين تناقضات الجوع والتخمة، التخلف والتقدم، الديمقراطية والدكتاتورية..

يمكن للمتابع للساحة الإعلامية أن يلاحظ، في موضة البرامج التي اجتاحت العديد من القنوات الفضائية أو في الجرائد والإعلام، انتشار العديد من البرامج الحوارية التي تناسلت كالطفيليات، حيث يستدعى أكثر من طرف في برنامج يختار له مسيّر يتقن فن التهييج والاستفزاز ليخرج ممن يحاور أكثر الأفكار والآراء جرأة وإثارة. لكن الخاسر الأكبر في ذلك هو المتلقي أو المشاهد أو المستمع أو القارئ الذي لا يحصل في النهاية إلا على مزيد من التشتت والضياع، بحيث لا يستطيع الحصول على فكرة واضحة، فيستوي لديه الحق أو الباطل والصواب أو الخطأ..

على العكس من ذلك في تراثنا الفقهي مثلا، يمكن ملاحظة أن الفقيه وهو يبسط الآراء المختلفة للمذاهب والمدارس الفقهية المختلفة، ثم بعد ذلك يتعقبها بالدراسة والتحليل فيرد التي لا توافق مذهبه ولا يقتنع بها، ليخلص إلى نتيجة في نهاية المطاف تكون زبدة الموضوع يتلقاها القارئ خصوصا المبتدئ والعامي بارتياح كبير. ورغم أن بعض الفقهاء في بعض الأحيان يظهرون تعصبا لمذهب ما ويبالغون في ذلك، إلا أنهم يمكنون القارئ من رأي يضمن لهم وحدة المنهج والاستقرار الفكري والمذهبي الذي لا توازيه أي مصلحة أخرى كيفما كان نوعها وجنسها في مقابل التشتت والضياع.

هذا الخطر الذي يهدد الذهن والعقل كما يهدد الإنسان في وجوده، يمكن للأمة الإسلامية الشاهدة على الإنسانية أن تساهم بشكل كبير في التقليل منه أو القضاء عليه. ذلك أن هذه الفلسفة تدفع الإنسان للتحرك في الحياة والفعل فيها دون هدف مسطر وفي غياب تام لمقصد محدد، وفي مجال تنعدم فيه الحكمة والتبصر، ولذلك قد يكون هذا من أهم ما يمكن أن يقدم الإسلام للبشرية والإنسانية جمعاء، في هذه الظروف العصيبة حين يقدم هدفا عاما ومقصدا كبيرا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧]، خاصة إذا حضرت النظرة الكلية والبعد الإنساني ومراعاة مآل هذا الإنسان ووضعه.

فالإنسان الذي يسعى جاهدا للحصول على أفتك الأسلحة لتدمير الحياة والنيل من أخيه الإنسان بتكبيده أفدح الخسائر في الأرواح ومظاهر الحياة، سوف يصير إنسانا آخر بفعل تقديره للنفس الإنسانية وتشبعه بالقيم الإسلامية التي تكرم الإنسان وتقدر روحه وحياته، بل تحترمه حيا وميتا.

والإنسان الذي يسرف في الإنفاق في الكماليات وعلى التفاهات من الترفيه والعبث في هذا العالم، سوف يكون إنسانا من صنف آخر حين يدرك أن المال ليس ماله إنما هو مال الله، والمال من ضمن المقاصد الخمس التي لا يجوز العبث فيها..

وكذلك الإنسان الذي لا يتورع في التنقل بين «المواخير» بدعوى السياحة، والتفنن في إبداع طرق ووسائل لممارسة الجنس بغض النظر عن الضوابط والقيم، هو نفسه بفضل حضور، الفكر المقاصدي القرآني في ذهنه ومعتقده، وبتقديره النسل وإدراكه تحريم الزنا، سوف يرتدع وينزجر ويكف عن الإساءة إلى نفسه وجنسه، بالإقلاع عن هذا العبث بالنسل، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

إن الطفرة الكبرى التي أحدثها الإسلام في العقل الإنساني تمثلت في ربط هذا العقل بأهداف ومقاصد محددة، وكانت هذه المقاصد من صميم هذه العقيدة ومن صميم هذا الدين. لذلك تطورت علوم عدة عند المسلمين، فكان الدافع الأساس إلى ذلك هو الميثاق الغليظ الذي ربطه العقل الإسلامي بين التطور العلمي ومصلحة الناس وخدمة البشرية والدين. «وبفعل متطلبات التجارة والملاحة والحج والإدارة، وتأمل الصنع الإلهي و«آياته» كانت الجغرافيا مع الرياضيات وعلم الفلك والطب، من العلوم التي كان فيها إسهام الحضارة العربية، الأكثر أهمية».[١]

فلأداء فريضة الحج في ظروف حسنة، أو لتحديد القبلة لأداء الصلاة تجاه قبلة مضبوطة بدقة، وللسير في الأرض والتأمل في ملك الله والتدبر في ذهاب الأمم وتعاقبها، وللإبحار في المحيطات للتجارة من أجل تحسين ظروف الناس المعيشية... فقد برع علماء الإسلام في تطوير البوصلة. «إن .. الأبحاث الفلكية تقدم للعرب فائدة عملية للاهتداء في الصحراء والبحر: فعندما أصبح رُحّلُ العربية ملاحين يشقون مياه البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الهندي وجوانب إفريقيا تطلبت الحاجة لتحديد مكان السفينة، معلومات معمقة وأدوات قياس كالإسطرلاب -الذي حسنوه حتى أتاح لهم قياس ارتفاع النجوم والشمس والقمر والكواكب الأخرى- والبوصلة التي اخترعوها ونقلوها للصينيين».[٢]

ولأن الإسلام دين يهتم بالنظافة والطهارة، وذلك لأن العبادات يكون الوضوء والتطهر مطلوبًا فيها، فلقد اهتم المسلمون بالبحث عما يحقق هذا المقصد، فكانوا هم السباقين إلى اكتشاف الصابون.

---

(١) روجيه غارودي، وعود الإسلام، ترجمة، محمد حسن الأمين، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص١٢٦.

(٢) روجيه غارودي، (م. ن)، ص١٢٣.

«وتطلب واجب الاتجاه نحو مكة للصلاة، أيا كان المكان الذي يوجد فيه المسلم علما دقيقا للتوجه في الفضاء، كما اقتضى واجب تحديد مواعيد الصلاة الخمس اليومية وصغ علامات شديدة لمواقع الشمس وساعة شروقها وغروبها لتحديد بداية ونهاية الصوم اليومي، ومدة الإقمار لحساب أول وآخر شهر رمضان».[١]

وكذلك لاهتمام المسلمين بالمقاصد ومراعاتها في تطبيق الأحكام الشرعية، فعند تأملهم في عبادة الصيام وتطبيقها، لاحظوا أن هناك عدة مقاصد أصلية كتحقيق مراد الله المتعلق بالعبادة والسعي للحصول على التقوى، ومقاصد تبعية أخرى كالوقاية من عدة أمراض. وتحقيقا لهذا المقصد، ومن شدة تأملهم ودراستهم لعبادة الصيام فقد نجح الأطباء المسلمون في اكتشاف نظام الحمية.

إن شعيرة الوضوء والنظافة الجسدية، وتجنب الغول (الكحول)، والصوم أوحت -على سبيل المثال- لأبي مروان بن زهر أحدِ علماء الأندلس المسلمة في القرن الثاني عشر بتأليف ونشر أول كتاب علمي حول الحمية المأكلية هو كتاب «**الحمية**».

لذلك فالعقل الإسلامي كان مسددا بالوحي وبالدين، فكانت دوافعه للبحث العلمي وتحقيق أهدافه في الحياة وابتكاراته المتعددة مرتبطة بالحكمة والمقاصد التي تريد الشريعة تحقيقها. فالعلوم كانت عند المسلمين دائما مرتبطة بغايات نبيلة وأهداف إنسانية سامية، وهذا ما دفع فيلسوفا كبيرا كـ «جارودي» إلى القول: «إن العلوم والتقنيات وسائل مدهشة في خدمة الغايات الإنسانية. ولكن «العلوم» وحدها أي إعداد وسائل منفصلة عن الحكمة -التي هي تأمل في الغايات- تصبح مهلكة للإنسان.. من هذا المنظور».[٢]

---

(١) روجيه غارودي، (م. ن)، ص١٢٣.
(٢) روجيه جارودي، (م. ن)، ص١٤٢.

لقد انفرط عقد هذا العقل في الوقت الراهن.. فلذلك يمكن القول «إن الذي يرى الأمور «من فوق»، أي بتصور كلي، ويراعي المآل، ويحترم الإنسان، بشكل عام قادر على تحقيق الانسجام وتقدير الحجوم والأبعاد وترتيب الأولويات والتمييز بين الأمراض والأعراض.

أين توهج العقل المسلم وقدراته الهائلة التي رباه عليها الإسلام؟!

أين العقل القائس القادر على إدراك علل الأشياء.. المتبصر بأحوال الأمم والجماعات.. القادر على فهم السنن الاجتماعية والأسباب.. المتتبع للمسار الحضاري في نشوء وسقوط الحضارات.. القادر على التمييز بين الوسائل والغايات، وحكم التشريع، والعلل التي هي مناط القياس، المتدبر لقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]».[1]

فالعقل الإسلامي المعاصر يحتاج إلى إعادة صياغة جديدة تراعي الظروف المعاصرة والواقع بكل أبعاده المحلية والإقليمية والعالمية، مع الاهتمام بالمكونات الرئيسة للشخصية المسلمة. وهذه الصياغة لن تكون هادفة ومنسجمة مع التصور الإسلامي إلا إذا كانت مؤطرة ومسددة بحكمة الشريعة وغايتها، حتى يعصم هذا العقل من الزيغ عن الخط المستقيم والأهداف السامية النقية التي تنشدها الشريعة الإسلامية.

ب- بيئة منهكة ومستنزفة

لقد أصبحت قضية البيئة قضية مقلقة، وتجاوزت كل الحدود الكارثية المتوقع حصولها. وأصبحت بالفعل مشكلة إنسانية تهدد البشرية جمعاء بغض النظر عن مسببها. وإذا كان للغرب اليد الطولى في إحداث هذه الكارثة الكونية، فإن

---

(١) عمر عبيد حسنة، من تقديمه لكتاب، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم** لعماد الدين خليل، كتاب الأمة، ع٤، الدوحة، ط٢، رمضان ١٤٠٢، ص١٢-١٣.

باقي مكونات العالم تساهم في تأدية الكلفة الباهظة من حيث التهديد الحقيقي لوجودها. وليس المكونات البشرية وحدها هي المهددة بالزوال، بل كل الحياة وكل كائن حي قدّر له العيش والحياة في هذا الواقع المهَدد.

إن الأرض والكون الذي خلقه الله عز وجل مسخرا للإنسان وفي خدمته، أصبح الآن يقض مضجعه، ويهدده في وجوده. فكأن الإنسان أصر على تحويل النعم التي أنعم الله عز وجل بها عليه إلى نقم، والعيش الآمن المطمئن إلى العيش الضنك..

وهكذا فبعد الحرب العالمية الثانية، انتبهت الحركة الثقافية الفلسفية في الغرب وبالخصوص في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي إطار الجهود المعارضة للحرب، إلى عدة قضايا تتعلق بمستقبل الإنسان محاولة البحث عن سبل أفضل وأمثل من أجل العيش بسلام وأمان فوق هذا الكون. وكان من القضايا التي أثارتها هذه الجهود: الحقوق المدنية، الحركة النسوية، حركة حقوق الإنسان، حركة حقوق الحيوان، وطبعا الحركة البيئية.[١] وإذا كان لابد من التعليق على هذا فإن أقل ما يمكن أن يقال هو أن الإنسان، كل الإنسان، أصبح يعيش في قلق، وقد تعددت همومه وانشغالاته المؤرقة، مما أدخله دوامة خطيرة حتى أصبحت قضية وجوده وزواله، قضية جوهرية. وقد ظهر في الآونة الأخيرة وشاع مصطلح «الخضر» بشكل كبير ولافت للانتباه، حيث ظهرت «العلوم الخضراء» و«الشركات الخضراء» و«الأبنية الخضراء» و«المنازل الخضراء».. وقريب منها مصطلحات من مثل «الكيمياء البيئية» و«الكيمياء الحيوية البيئية» و«الزراعة الحيوية» و«الهندسة البيئية».

---

(١) مايكل زيمرمان، **الفلسفة البيئية**، ترجمة معين شفيق رومية، عالم المعرفة، ع ٣٣٢، أكتوبر ٢٠٠٦، ١٥/١.

لقد أصبح الوضع مقلقا ولا يطاق في مجال البيئة، حيث أصبح الإنسان مهددا في كل لحظة وفي كل حين. والتهديد حقيقي وليس مجازيا.

إن المعطيات العلمية والميدانية، وكذا الإحصائيات المتعلقة بواقع البيئة العالمية، أقل ما يقال عنها إنها لا تبشر بالخير. هذا الاستنتاج لا يعني التشاؤم والإذعان للواقع المرير، فذلك كله لا علاقة له بطبيعة العقلية والنفسية التي يتمتع بها المسلم خاصة والفكر الإسلامي عموما. إذ هي نفسية مفعمة بالتفاؤل والتطلع إلى الأفضل لتجاوز كل الظروف الصعبة التي يعيشها، والنصوص في ذلك كثيرة جدا، منها قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد جاء في تفسير الآية: «لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه»[١]. ومنها ما جاء في توجيهاته ﷺ أنه قال: **«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»**.[٢]

وقد ربط القرآن الكريم بين توظيف النعم والآيات وتسخيرها لصالح البشرية، وبين الشكر له والاعتراف بفضله ومنته سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَنْعَامَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

وقد جاء في السنة النبوية عدد هائل من النصوص التي توجه الإنسان إلى الاستفادة من النعم والخيرات دون الإفساد والتخريب، لما يعود على الطبيعة والبيئة بالضرر وعلى الإنسان من الخراب والدمار:

---

(١) عبد الله بن عمر البيضاوي (٦٨٥هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل ومعه حاشية شيخ زاده**، المطبعة العثمانية، ١٤١٥، ص٩٧.

(٢) أخرجه مسلم عن صهيب، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

– عن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: «**ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها إلا يسأله الله عنها يوم القيامة**»، قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: «**حقها أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمي به**».(١)

– وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا -أو دجاجة- يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، لعن رسول الله ﷺ من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا.(٢)

– وفي حديث آخر عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له**»، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجرا؟ فقال: «**في كل كبد رطبة أجر**».(٣)

– وفي صحيح مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ «**أَنَّ نَمْلَةً قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟**»(٤).

---

(١) أبو محمد، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري (٦٥٦هـ)، **الترغيب والترهيب** تحقيق، محمد السيد، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢١، ٢١٣/٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة.. ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم.

(٣) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب سقي البهائم المحترمة وإطعامها.

(٤) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل.

- وفي الحديث أيضا عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر**».[١]

أما عن البحر والاستفادة منه فيقول الله عز وجل: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ١٤]، ويقول: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [المائدة: ٩٦].

هذا الغيض من الفيض الهائل من النصوص والتوجيهات السماوية الذي جاءت به الرسالة الإسلامية، بإمكانه أن يؤسس لنظرية متوازنة تساهم بشكل فعال في الحفاظ على البيئة ورعايتها من كل ما لحقها من إفساد الإنسان لها. فقد شرع الإسلام أحكامًا متعددة تساهم في تحقيق الحفاظ على البيئة من «..أن تعمل فيها يد الإنسان بتصرفات تخل بنظامها، أو تعطل مقدراتها على أن تكون صالحة للحياة منمية لها، أو تربك توازنها الذي تقوم عليه عناصرها المختلفة، وقد جاءت تلك الأحكام متضافرة كلها على منع الإنسان من ذلك، وأمره بأن يبقي على الطبيعة صالحة كما خلقها الله، وأن يمارس عليها مهمة الخلافة على ذلك الوجه من الصلاح»[٢]. ولأهمية ما ورد من تشريعات في هذا المجال، وكذلك مراعاة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) عبد المجيد النجار، **مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة**، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٨، ص٢٠٩.

للأوضاع البيئية العالمية، فقد ذهب البعض إلى عد حفظ البيئة مقصدا من مقاصد الشريعة الإسلامية وكلية من كلياتها.[١]

ج- الاستهلاك غير المرشد قضية العصر

في فطرة الإنسان سلوك نزاع إلى الاستهلاك والترف والتبذير. فإذا حضر الوازع الموجه إلى الخير والصلاح للفرد والمجتمع والأمة والبشرية جمعاء، انخفض مؤشر هذا السلوك الخطير المقلق. أما إذا انفلت هذا الإنسان من عقال التوجيهات السوية والحكيمة، ضاع كل شيء ودقت طبول الزوال ونذر الدمار والخراب في كل مكان.

إن الإنسان المعاصر بالخصوص، يصر على الانعتاق من كل ما يتصوره قيودا تكبح حركته وتلجمها حتى لا يقع في المحظور، فصنع لنفسه كوكبا كله قلق وكله توجه نحو المجهول!! فقتامة صورة الوضع ومستقبله، إذا ما سارت الأمور على ما هي عليه، يمكن تصورها إذا علمنا طبقا للإحصائيات والدراسات أن «..في القرن القادم سيكون فقط ٢٠% من السكان، الذين يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد وسلام. أما النسبة الباقية (٨٠%) فتمثل السكان الفائضين عن الحاجة، الذين لن يمكنهم العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال الخير»[٢]، أكثر من ذلك فـ «إن ٣٥٨ مليارديرا في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه ٢,٥ مليار من سكان المعمورة، أي ما يزيد قليلا عن نصف سكان العالم. وأن هناك ٢٠ % من دول العالم تستحوذ على ٨٥% من الناتج العالمي الإجمالي،

---

(١) انظر عبد المجيد النجار، (م. ن)، ص٢٠٧.

(٢) هانس بيترمارتين وهارالد شومان، **فخ العولمة**، ترجمة وتقديم عدنا عباس علي، ومراجعة وتقديم رمزي زكي، عالم المعرفة، الكويت، ع٢٩٥، ط٢، أغسطس ٢٠٠٣، ص٩.

وعلى ٨٤% من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها٨٥ % من المدخرات العالمية»، وليت الأمر يقتصر على ذلك، إذ يزداد الوضع قتامة إذا علم أن «هذا التفاوت القائم بين الدول يوازيه تفاوت آخر داخل كل دولة، حيث تستأثر قلة من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطني والثروة القومية، في حين تعيش أغلبية من السكان على الهامش. وهذا التفاوت الشاسع في توزيع الدخل والثروة سواء على الصعيد العالمي أو على الصعيد المحلي لم يعد بالأمر المزعج، بل بات في رأي منظري العولمة مطلوبا في حلبة التنافس العالمي الضاري».(١)

إن السياسات الاقتصادية العالمية لم تفلح في إزاحة الأزمة المعاصرة العالمية، وإخراج العالم إلى بر الأمان، مما دفع الوضع إلى الحالة الكارثية. ومما زاد الطين بلة تشابك الخيوط المؤدية إلى هذا النفق المظلم، حيث «إن الفقر يسمم حياة ما يقرب من نصف سكان المعمورة. من ناحية أخرى، أخذ الدمار اللاحق بالبيئة يحطم قدرة الكوكب الأرضي على تقديم المتطلبات الضرورية لحضارة إنسانية. فالأوبئة الجديدة والأوبئة القديمة ما عاد في الإمكان مكافحتها وذلك لأن مناعة الجراثيم حيال المضادات الحيوية تزداد انتشارا من يوم لآخر. أضف إلى هذا، أن ملايين من بني البشر قد صاروا يئنون تحت وطأة تفاقم اللامساواة والاضطراب الاقتصادي وشيوع الصراعات الدموية».(٢)

لقد ارتبط نمط العيش في الوقت المعاصر على الصعيد العالمي، بالاستهلاك. فالهم الأول للإنسان في العالم هو الاستهلاك، وإمتاع نفسه بغض النظر عن كل المعطيات المادية التي في ملكيته، وكل الوسائل التي يمكن أن

---

(١) هانس بيترمارتين وهارالد شومان، **فخ العولمة**، ص١١.

(٢) هورست أفهيلد، **اقتصاد يغدق فقرا**، ترجمة عدنان عباس علي، عالم المعرفة، الكويت، ع٣٣٥، يناير٢٠٠٧، ص٢٠٦.

توصله إلى غرضه وهدفه، ضاربا كل الأعراف والقيم عرض الحائط..إن الإنسان المعاصر يهرول إلى المتعة وإلى الرفاه وهو يدوس على القيم ولا ينضبط بأي ضابط.. «فنحن نجلس إلى مائدة الغذاء، ويلتقط كل منا شوكة، ويرتشف رشفة من العصير، غير مدركين آثار التداخل الكوني على أطباق غذائنا، فاللحم يأتينا من أيوا، من أبقار تتغذى على الذرة من نبراسكا، والأعناب تأتينا من تشيلي، والموز من هندوراس، وزيت الزيتون من صقلية، أما عصير التفاح فهو لا يأتي من ولاية واشنطن، لكن عبر طريق طويل من الصين. لقد خفف علينا المجتمع الحديث من أعباء الزراعة والحصاد، وحتى من عبء إعداد خبزنا اليومي، في مقابل تحمل عبء دفع ثمن كل هذا ببساطة، ولا ننتبه إلا عندما ترتفع الأسعار، وتكون عواقب عدم انتباهنا شديدة التأثير»[1]، وهذه مظاهر أخرى أكثر تعقيدا من مظاهر الأزمة..

لقد عمق فكر العولمة والكونية الأزمة، فالإعلام والصورة والسينما والصحافة نمطت العالم ووضعت تفكيره وذوقه وأحاسيسه في قالب واحد يصنع في الغرب، في مدارس هوليود أو باريس أو لندن..

وحتى حاجيات هذا الإنسان الاستهلاكية لم يعد حرا في اختيارها، فهي كذلك تكون تحت رحمة الصناعة الاستهلاكية في الغرب، «..وقبل أن يصل بنطلون الجينز إلى المحل التجاري الألماني، غالبا ما يكون هذا البنطلون قد جاب أنحاء العالم: فهو ينتج في الصين من نسيج جرى تصنيعه في كوريا الجنوبية؛ وأزرار من إنتاج بريطانيا، أما قطعة القماش المكتوب عليها اسم الشركة المنتجة

---

(١) جويل ك. بورن.ج.ر.، نهاية الوفرة، ترجمة حمدي أبوكيلة، الثقافة العالمية، الكويت، ع١٦٢، سبتمبر / أكتوبر٢٠١١، ص٦٨.

فإن إنتاجها وخياطتها أمران تتكفل بهما الصناعة المنزلية في الولايات المتحدة الأمريكية..».[١]

هذه الطريقة في الاستهلاك، وبالتزامن مع مشكلات أخرى متداخلة معها زادت في هموم الإنسان المعاصر وأرقته. فالطريقة التي يدار بها الاقتصاد العالمي، والمؤثرون فيه والفاعلون الأساسيون، زادت من حدة الضغط الكبير على المواطن العادي فدفعته إلى التشاؤم من الحياة والاندفاع بشكل مريب إلى الانتحار والموت، وهكذا فقد ارتفع عدد الفلاحين في الهند المقبلين على الانتحار: «ففي ولاية أندرا براديش، ارتفعت حالات انتحار المزارعين من ٢٣٣ حالة في العام ١٩٩٨ إلى ٢٦٠٠ حالة في العالم ٢٠٠٢، وفي ماهاراشترا، تضاعفت حالات الانتحار بأكثر من ثلاثة أمثال، من ١٠٨٣ حالة في العام ١٩٩٥، إلى ٣٩٢٦ حالة في العام ٢٠٠٥. ويشير أحد التقديرات إلى أن هناك حوالي ١٥٠ ألف مزارع هندي كانوا قد أخذوا حياتهم بأيديهم خلال السنوات القليلة الأخيرة»[٢]. ومن أهم الدوافع والأسباب الموصلة إلى هذه الوضعية الكارثية، هذا الخط الفكري للاقتصاد العالمي الذي يشكل البنك الدولي أحد أهم اللاعبين والفاعلين فيه. فبدلا من السماح للسكان من ابتكار وإبداع حلول ذات طابع محلي أصيل يمكن من تجاوز الأزمة الزراعية «يقوم البنك الدولي حاليا بتشجيع استراتيجية تنمية جديدة تعتمد على زراعة الشركات الضخمة في الوقت نفسه الذي يخلق فيه احتياطات «محمية» في الأماكن التي يحاول فيها السكان المهمشون كسب ما يقيم أودهم بصعوبة بالغة

---

(١) هورست أفهيلد، (م. ن)، ص٢٤٣.

(٢) والدن بيلومارا بافيرا، **حروب الغذاء**، ترجمة، إنصاف الباير، الثقافة العالمية، الكويت، ع١٦٢، سبتمبر - أكتوبر ٢٠١١، ص٤٨.

اعتمادا على زراعة الملكيات المشاعية المشتركة، التي لا يرى لها البنك الدولي أي مستقبل».[١]

هذه صورة مصغرة عن الوضع الذي يعيشه الإنسان في العالم، وفي مختلف البلدان. يتساوى فيه الإنسان في البلدان التي تصنف على أنها متقدمة أو ذاك المحسوب على البلدان المعدودة متخلفة، يتساوى فيه أيضا الإنسان من مختلف الأعراق والأجناس، كما يتساوى فيه الإنسان من مختلف الأديان كذلك.. إنها الكارثة التي حلت بالإنسان والكون عامة، بما فيه من جماد ونبات وحيوان.. حتى البريء من هذه المخلوقات مهدد هو أيضا..فإذا كان الرجل الأبيض أو الغربي هو المسؤول الأول عن هذه الوضعية العالمية، بفعل ما اقترفت يداه من جرائم تخص البيئة والمال والحياة عامة، لفرط إقباله على الاستهلاك وبشكل جنوني فاق كل التقديرات والتوقعات، فإن الذي يدفع الثمن الآن هو باقي سكان الأرض جراء ما لحق أرضهم من تدمير وما لحق زراعتهم من كساد واقتصادهم من كساد وبوار..

إن النجاح والتفوق الاقتصادي الذي يعرفه الغرب في هذه المرحلة، نسف كل القيم والأخلاق وقوضها من الأساس، فقضى على قواعد السلوك والمعاملات التي تدعو إليها الفلسفة الغربية والاقتصاد الرأسمالي. فاندثرت العديد من القيم والأخلاق والخصال الحميدة من مثل «الجد وعدم التبذير والسلوك الحسن والصبر والإخاء والمروءة والشجاعة. ففي مجتمعات الرفاهية المسرفة والوفرة الفائضة عن الحاجة، نرى تلك الصفات الحميدة قد مسخت وشوهت أضعافا مضاعفة، أو نرى قيما جديدة وأنماط سلوك مستحدثة تحل محلها..

---

(١) والدن بيلوومارا بافيرا، (م. ن)، ص٤٥.

وهكذا، يمكن أن تنقلب الفردية الانعزالية فتتحول إلى النرجسية والأثرة، والإخاءُ إلى السلوك الجمعي غير المتعقل والمتكتّل في مجموعات تؤم المراقص وحفلات موسيقى روك آند رول، وحقُّ تقرير المصير إلى فوضى خُلقية.. كما لمسنا في الصيحة التي ترددت سنوات في الغرب على ألسنة الدعيات الداعيات إلى تحرير المرأة وحقها في أن تفعل بالجسد ما تشاء، مثل الإجهاض (بطني لي وحدي!)، وتنقلب حرية الفكر وعدم التحيز إلى إباحية مطلقة، والتسامح والسماحة إلى حيدة القيم، والتنافس المشروع إلى جنون الاستهلاك والحرص على متاع الدنيا، والمساواة إلى التسوية الآثمة التي لا تميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين.. ورفاهة الحس إلى الولولة اليائسة، وتنقلب التقوى والخشية إلى الفزع والجزع، والشهوة الجسدية المشروعة إلى جنون الجنس واستعراض المهارات الجنسية، وينقلب السعي الجاد النشط إلى استبعاد العمل واستبداده للإنسان كدحا، وتنقلب المرونة إلى عداء أعمى للتراث أو لكل ما يعد تقليديا».(١)

هذه نتائج الجشع والنهم وفلسفة الاستهلاك المتهور، وهذه بعض انعكاساتها على الفرد والمجتمع، وهذه بعض آثارها على السلوك والقيم!!

إن شريعة الإسلام التي رغبت في الكسب والرزق وحببت السعي إليه ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، فإنه بالمقابل لذلك حرص على تسخيره وتوظيفه أحسن توظيف فيما يحقق مصلحة الأمة ووفق ضوابط الشريعة الحكيمة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ

---

(١) مراد هوفمان، الإسلام كبديل مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات ومجلة النور الكويتية، ط١، ١٩٩٣، ص٢٨.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة ٢٠٤-٢٠٥]، وقد جاء في الحديث عن عطاء عن جابر رضي الله عنه: «**ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير ولا إنسان إلا كان له به صدقة**»[١] وكذلك جاء في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**من أخذ من أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله**»[٢]..دون إغفال عدد من النصوص والتوجيهات القرآنية والنبوية التي تحارب الإسراف والتبذير: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥-٢٦]، ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].. وما جاء في الحديث الذي رواه أبو برزة الأسلمي أن الله عز وجل يسأل يوم القيامة الإنسان عن أشياء عدة من بينها «**عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه**»[٣]، وأخرج الإمام مسلم في **صحيحه**: عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قَالَ: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ، مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع.

(٢) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الاستقراض، باب من أخذ من أموال الناس يريد أداءها.

(٣) أخرجه الترمذي في **السنن** كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة. [غيرت اسم الراوي لأن الرواية عنه هي الصحيحة، والرواية عن ابن مسعود ضعيفة، كما بين ذلك الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. راجع ط. الدكتور بشار عواد، الحديثان ٢٤١٦ و٢٤١٧، وفيه قال الترمذي (حديث حسن صحيح)، بينما ضعف الأول]. (المحرر)

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق.

وقبل كل هذا فللشريعة الإسلامية تصور متميز للمال، فهي تعتبر المال كله لله وأن ليس للإنسان إلا مهمة الاستخلاف، ومن ثم فهو ملزم بأداء الأمانة على أحسن وجه، ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، فالمال «لله جعل الناس كالخلائف عنه في التصرف فيه مدة ما، فلما أمرهم بالإنفاق منه على عباده كان حقا عليهم أن يمتثلوا لذلك كما يمتثل الخازن أمر صاحب المال إذا أمره بإنفاذ شيء منه إلى من يعينه».(١)

خاتمة

الرجوع إلى مقاصد القرآن الكريم عودة إلى الأصل. ذلك أن المشتغلين على المقاصد عموما يتعاملون في الغالب مع الأحكام الشرعية أو مع أصول الفقه. والفقه الإسلامي وأصوله هو في النهاية اجتهاد بشري يروم قراءة النص الشرعي، بعبارة أخرى: هو فهم غير معصوم قابل للخطإ والصواب، للقبول والنقد وكذلك للمراجعة والتصحيح. وإذا كان من غير الصحيح التنكر لكل التراث الفكري في التراث الإسلامي وإقصائه، فإنه في نفس الوقت لا ينبغي وضع العراقيل أمام القادرين من النهل من المصدر الأصلي والرجوع إليه وقراءة النص الشرعي قراءة واعية تراعي ظروف الإنسان وواقعه. وهذا تحد كبير أمام المتخصصين نحتاج فيه إلى تراكم فكري نوعي كبير يساعدنا على تلمس الطريق أمام القيام بالدور المنوط بهذه الأمة على البشرية.

ولا يمكن الوصول إلى دور الشهود الحضاري إلا بتوظيف الإمكانات والقدرات الهائلة التي تملكها الأمة الإسلامية ومكنها الله منها، كما وضعها سبحانه أمام كل الناس ليستهدوا بها، المتمثلة أصلا في الزاد المعجز والكنز الذي لا ينفد

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٦٩/٢٧.

ألا وهو القرآن العظيم. بالإضافة إلى ذلك فإن قراءة الواقع الإنساني قراءة نقدية علمية تمكن من الوقوف على أهم الثغرات التي تعوّق سيره على هدي الله وصراطه المستقيم. ومن ثم إبداع خطاب إسلامي متوازن إنساني يلامس قضايا الإنسان ويقترح الحلول المناسبة لها انطلاقا من القرآن الكريم.

والقول بمصدرية القرآن الكريم وبالرجوع إليه بالنسبة للمسلمين لا ينبغي فهمه إلا على ما هو معتاد ومعروف، أي باعتماد القرآن الكريم وعدم إغفال السنة النبوية الشريفة التي لها دور فعال في فهم النص بطريقة سليمة.

وبذلك فإن اعتماد مقاصد القرآن الكريم مدخل مهم للوصول إلى المهمة الكبرى المنوطة بالمكلفين بهذه الشريعة. وإذا كنا هنا اعتمدنا جانبا من القرآن الكريم ممثلا في مقاصد أول ما نزل ومقاصد آخر ما نزل من القرآن الكريم، فإن جوانب أخرى عديدة وكثيرة في القرآن العظيم الذي لا تنقضي عجائبه ولا غرائبه هي في أمس الحاجة إلى الدراسة والبحث للوصول إلى مقاصد أخرى تكون مفيدة جدا لاكتشاف أقرب وأسهل الطرق الموصلة إلى أداء مهمة الإنسان.

انطلاقا مما سبق، فإن تحقيق الشهود الحضاري للأمة الإسلامية على الإنسانية، من خلال مقاصد القرآن يكون باستحضار المشاكل الكبرى التي عجز الفكر الإنساني عن الوصول إلى إيجاد حل لها. فيكون التدخل المنطلق من مقاصد القرآن ليضع لها حلا بمثابة دعوة مباشرة، بأسلوب راق لهذا الدين.

والمقاصد التي استحضرناها من أول وآخر ما نزل هي البناء العلمي والبناء الإيماني والبناء الدعوي والبناء الأخلاقي وكذلك البناء الاقتصادي، تعين على تحقيق هذه المهمة وذلك باستحضار الوضع الصعب الذي تعيشه الإنسانية. لذلك فإن مشاكل الإنسانية كثيرة جدا، غير أنه يمكن التركيز على أعقدها وأصعبها، ومنها الضياع والتشتت الذي يعيشه الإنسان المعاصر، والإفراط في الاستهلاك، وتدمير البيئة والقضاء عليها.

بهذا الشكل يمكن للأمة الإسلامية ونخبها بالخصوص الانخراط في المشروع الإنساني الكبير، والبحث عن المشتركات التي تجمعها مع الإنسانية جمعاء، وذلك بالفكر البناء من خلال النقد والمراجعة والإقناع وحسن تدبير المرحلة. ذلك أن الغرب المسيطر الآن والمفتون بالقوة والمزهو بحب السيطرة والتغلب لا يرضى بأي كان، لكنه قد يقبل بنا متعاونين مساهمين في إخراج الإنسان من التهديد الوجودي الذي يتربص به عند كل منعطف في هذه الحياة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وفي كل الأحوال فإن موضوع مقاصد القرآن، وموضوع الشهود الحضاري على الإنسانية، والموضوع المركب من الاثنين، يبقى في أمس الحاجة إلى الدراسة والبحث العميق لمراكمة تجارب وخبرات تكون كفيلة بزحزحة فكر النخب والدفع به نحو إبداع وابتكار الحلول المناسبة للخروج من النفق الضيق الذي دخلته الأمة. لتخرج من قوقعتها وتفكيرها الجزئي الضيق إلى علم الإنسان الفسيح ودرء المفاسد عنه وجلب المصالح له. بكلمة الانتقال من الاكتفاء بـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلى ﴿يا أيها الناس﴾.

والله من وراء القصد.

المصادر والمراجع

- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (٧٩٠هـ)، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق عبد الله دراز، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني (٣٩٥هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ)، **المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري(٥٣٨هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي (٣٠٣هـ)، **المجتبى من السنن**، بيت الأفكار الدولية، عمان.
- أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أبي بكر بن فرح شمس الدين القرطبي (٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م.

- أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ)، **الرسالة**، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، ط١، ١٩٤٠م.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- أبو عبد الله، بدر الدين، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، **المنثور في القواعد**، تحقيق تيسير فائق أحمد محمود، مراجعة عبد الستار أبوغدة، وزارة الأوقاف، الكويت، ط١، ١٩٨٢م.
- أبو محمد، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري (٦٥٦هـ)، **الترغيب والترهيب**، تحقيق: محمد السيد، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ.
- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (٣٩٣هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.
- أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٧١هـ)، **الأشباه والنظائر**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

أحمد الندوي، **القواعد الفقهية (مفهومها، نشأتها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، مهمتها، تطبيقاتها)**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩١.

- أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، **شرح القواعد الفقهية**، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٩٧٣م.
- أحمد عبد الحليم عطية، **ليوتار والوضع ما بعد الحداثي**، دار الفارابي، لبنان، ٢٠١١م.
- ألين تورين، **نقد الحداثة**، ترجمة عقيل الشيخ حسين، نشر على حلقات بمجلة، **المنطلق**، بيروت، ع ١٠٨/١٠٩، صيف وخريف ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

- بيتر بروكر، وآخرون،، **الحداثة وما بعد الحداثة**، تعريب عبد الوهاب علوب، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٥.

جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، **الأشباه والنظائر في الفروع**، دار الفكر، بيروت، (د. ت).

- ——— ، **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

- جمال الدين عطية، **نحو تفعيل مقاصد الشريعة**، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠١م.

- جويل ك. بورن.ج.ر.، **نهاية الوفرة**، ترجمة: حمدي أبوكيلة، الثقافة العالمية، الكويت، ع ١٦٢، سبتمبر/ أكتوبر٢٠١١.

- حسين حامد حسن، **نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي**، مكتبة المتنبي، القاهرة، ١٩٨١.

- روجيه غارودي، **وعود الإسلام**، ترجمة محمد حسن الأمين، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

- زيجمونت باومان، **الحياة السائلة**، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رءوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،بيروت،ط.١، ٢٠١٦م.

- زين الدين بن إبراهيم بن محمد، ابن نجيم (٩٧٠هـ)، **الأشباه والنظائر**، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٨٣م.

- سيد قطب (١٣٨٥هـ)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

- طه جابر العلواني، **مقاصد الشريعة**، دار الهادي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- الطيب برغوث، **المدخل السنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم**، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، لندن، ط١، ٢٠١٦م.

- عبد الله بن عمر البيضاوي (٦٨٥هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ومعه حاشية شيخ زاده، المطبعة العثمانية، ١٤١٥هـ.

- عبد المجيد النجار، **فقه التحضر الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

- عبد المجيد النجار، **مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة**، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٨م.

- عدنان جرجس، **الأرض تدق أجراس الخطر**، ترجمة، عبد المنعم السلمون، الثقافة العالمية، الكويت، ع ١٣٢، سبتمبر ٢٠٠٥.

- علال الفاسي، **المدخل لعلوم القرآن والتفسير**، إعداد وتصحيح: عبد الرحمن بن العربي الحريشي، مطبعة الدار البيضاء، ١٩٨٨م.

- عماد الدين خليل، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، كتاب الأمة، ع٤، الدوحة، ط٢، رمضان ١٤٠٢.

- عمر عبيد حسنة، **حتى يتحقق الشهود الحضاري**، المكتب الإسلامي، دمشق، ط١، ١٩٩١م.

- ـــــــــــ، **في منهجية الاقتداء**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- ـــــــــــ، **من فقه التغيير: ملامح من المنهج النبوي**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

- اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، **مستقبلنا المشترك**، ترجمة: محمد كامل عارف، عالم المعرفة، الكويت، ع: ١٤٢، أكتوبر ١٩٨٩.

- لستر ثارو، **الصراع على القمة**، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع ٢٠٤، يناير ٢٠٠٨.

- مالك بن نبي، **مذكرات شاهد للقرن**، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٤م.

- مايكل زيمرمان، **الفلسفة البيئية** ترجمة، معين شفيق رومية، عالم المعرفة، ع ٣٣٢، أكتوبر ٢٠٠٦.

- محمد الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ)، **التحرير والتنوير**، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

- محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد الكتاني (١٣٨٢هـ)، **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية**، تحقيق علي محمد دندل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (١٢٥٠هـ)، **فتح القدير**، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

- محمد تقي الفقيه، **قواعد الفقه**، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

- محمد سبيلا، **الحداثة وما بعد الحداثة**، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م.

- محمد شهيد، **في المشترك الإنساني: تأسيس مقاصدي**، طوب بريس، الرباط، ط١، ٢٠١٧م.

- ———— ، **مراجعات في الفكر المقاصدي**، سلسلة روافد، الكويت، ع ١١٧، ط١، مايو ٢٠١٥.

- محمد صدقي بن أحمد آل بورنو وأبو الحارث الغزي، **موسوعة القواعد الفقهية**، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٧م.

- محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط٣.

- مراد هوفمان، **الإسلام كبديل**، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات ومجلة النور الكويتية، ط١، ١٩٩٣م.

- مناع القطان، **مباحث في علوم القرآن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤، ١٩٨٣م.

- نور الدين مختار الخادمي، **أبحاث في مقاصد الشريعة**، مؤسسة المعارف، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

- هانس بيترمارتين وهارالد شومان، **فخ العولمة**، ترجمة وتقديم عدنا عباس علي، ومراجعة وتقديم رمزي زكي، عالم المعرفة، الكويت، ع٢٩٥، ط٢، أغسطس ٢٠٠٣.

- هورست أفهيلد، **اقتصاد يغدق فقرا**، ترجمة عدنان عباس علي، عالم المعرفة، الكويت، ع٣٣٥، يناير ٢٠٠٧.

- والدن بيلوومارا بافيرا، **حروب الغذاء**، ترجمة إنصاف الباير، الثقافة العالمية، الكويت، ع١٦٢ سبتمبر/ أكتوبر ٢٠١١.